
November 2nd, 1917.
ميسرة صلاح الدين
فريق
متميزون
E-BOOK
100
عام على
وعد بلفور
قراءة عبر الأدب والتاريخ
بيت الياسمين للنشر والتوزيع
to the knowledge of the Zionist Federation.

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

١٠٠ عام على وعد بلفور

ميسرة صلاح الدين

عن الكتاب..

هذا كتاب جديد في مادته وتحليله ورؤاه يعود بنا إلى تاريخ العبرانيين، كما رأوه هم في كتبهم الدينية وتراثهم الشعبي ويعرض كيف تمكنت منهم هذه الرؤى عبر التاريخ وحتى العصر الحديث حين التقت مع الرؤى السياسية للدول الأوربية وخصوصا إنجلترا التي كانت لها حسابات سياسية في تقسيم المنطقة، ووجدت في تراث العبرانيين الديني والأدبي والشعبي معينا لها، فانصاعت إليه وحققت آمال اليهود التي مشت معهم عبر التاريخ الروحي، دون اعتبار لتاريخ العرب المادي أو الروحي أيضا. وهكذا، للمرة الأولى سيجد القارئ نفسه أمام الإرهاصات الأولى لكل ما بات معروفا عن المؤامرة في العصر الحديث، التي لم تكن أكثر من نصوص دينية وفولكلورية وأدبية. ثم يعرف كيف كسب التاريخ الوهمي لليهود وصار واقعا، ولم يكسب التاريخ الحقيقي للعرب. هذا هو سؤال الكتاب وإجابته وهذه هي اللحظة المناسبة للمعرفة ولو مرت مئة عام. وربما لهذا السبب. " مئة عاما على وعد بلفور" كما يقول المؤلف، هو قصة يجب أن نقرأها بعناية، ليس لغرض إلا اكتساب العلم فاتحين عقولنا وقلوبنا للتساؤلات التي لعلها تكون دليلا لنا في فهم أنفسنا والعالم من حولنا، وطبيعة العلاقة مع الآخر في المنطقة.





"لن أخشى الموت
لأن حياة شعبي أبدية
قطعوا رأسي من فوقي
فنما لي رأس آخر"

قصيدة نبوءة الخضر- يعقوب كاهان "شاعر يهودي"

"حيّ أنت
حي في ساعد عامل
حي في جبهة فلاح
حي في عزم مقاتل
يغزل من أوردة الليل الرابخ(1) أوردة لصباح
كذب زعم الزاعم أنّك مسكونٌ بالموت
يا شعبي
حيٌّ
حيٌّ
أنت"

شعبي حي – سميح القاسم "شاعر فلسطيني"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



(1)- رَبِخَ: (فعل) - رَبِخَ - رَبَخًا - رَبِخَ في الرمل: عَسُرَ عليه السير، والرابخ هنا تعني الذي لا يريد أن يزول أي المتمسك كالأرجل الغارقة في التراب... أي أنه ينسج بصعوبة قصوى.

مقدمة الناشر

هذا كتاب جديد من نوعه. إنه يبحث التاريخ الديني والأدبي لبني إسرائيل، وكيف صارت المعتقدات الدينية والأدبية هي الغذاء الروحي لليهود – رغم أنها علميا ليست حقائق مثبتة- في مواجهة صراعهم مع الشعوب الأخرى، التي كانت في المنطقة أو وفدت إليها. ثم كيف مضى التاريخ باضطهاد لليهود لم يكن للفلسطينيين فيه ناقة ولا جمل، حتى العصر الحديث حين رأت إنجلترا وأوروبا أن وسيلة سيطرتها على المنطقة هي زرع دولة إسرائيل. كان قيام دولة يهودية في فلسطين بحماية بريطانية أوروبية ضامنًا، في المستقبل، لعدم اتحاد مصر والشام في حِلفٍ عربي مُوَحَّدٍ يسيطر على نهر النيل وشمال إفريقيا من ناحية، وقناة السويس وآسيا الصغرى من ناحية أخرى، كما حدث في فترة حكم محمد علي، وسَبَّبَ قلقًا بالغًا للدول الاستعمارية الكبرى.

سترى في هذا الكتاب كنز العقائد اليهودية عبر التاريخ، وكنز المؤامرات العصرية على العرب، ورسائل بين السير آرثر ماكماهون مندوب الملك البريطاني في مصر، وبين الشريف حسين حاكم مكة، مع بداية الحرب العالمية الأولى، حول مستقبل المنطقة بعد الحرب، وكيف انتهى الأمر إلى "وعد بلفور" في الثاني من نوفمبر عام 1917، ثم كيف مشت الأمور والمؤامرات بعد ذلك لقيام دولة إسرائيل.

لقد استفاد اليهود من اضطهادهم القديم من الدول القديمة التي احتلت المنطقة، ومن اضطهادهم الحديث في أوروبا الذي وصل إلى ذروته إبان الحكم النازي لألمانيا. والتقت رغبتهم في إقامة وطن لهم مع رغبة الدول الاستعمارية في إضعاف المنطقة.

الكتاب أيضا يعرض كل وجهات النظر، حتى لأولئك الذين كانوا ضد وعد بلفور من اليهود، ثم دور أمريكا في المسألة، بعد أن خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية منهكة ومرهقة، فلقد بدأت الآلة الإعلامية الأمريكية في مصاحبة الجيش المنتصر- جيشها وجيوش الحلفاء- في التجول داخل ألمانيا ما بعد الحرب، لتصور الكاميرات التليفزيونية معسكرات الاعتقال النازية، وتكشف العديد من المقابر الجماعية، وأفران الحرق، وتَبُثُّها إلى العالم مع التركيز على المعتقلين اليهود بشكل خاص، على حساب كل الضحايا الآخرين.

وأصبح اليهود أكثر تصميمًا بعد الحرب على بناء وطن خاص بهم، وأصبح العالم أكثر تعاطفًا وترحيبًا بالفكرة، وتوالت الهجرات بشكل مكثف إلى فلسطين، حتى إن الرئيس الأمريكي ترومان أراد أن يُرحِّل مئة ألف من

الناجين من معسكرات التعذيب النازية، التي سميت لاحقًا "الهولوكست"، إلى فلسطين. وأصبحت بريطانيا، الدولة الجريحة بعد حربين عالميتين، في حيرةٍ من أمرها، وأصبحت تكلفة الحفاظ على فلسطين أكثر مما ينبغي، فأعلنت بريطانيا من قِبَلِ مندوبها في الأمم المتحدة عن أنها عاجزة في ظل الأوضاع الراهنة عن حفظ السلام في فلسطين بين العرب واليهود، وستترك حلّ المسالة في أيدي الأمم المتحدة، وهو ما يعني رغبة بريطانيا في الانسحاب من فلسطين تحت ستار دولي، واقترح المبعوث الروسي "أندرو جرميه" تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وتم تشكيل لجنة من قبل الأمم المتحدة وإرسالها للقدس لتقصي الحقائق على أرض الواقع، وبدأ اليهود في التواصل مع تلك اللجنة لإقناعهم بأحقيتهم في المطالبة بأرض فلسطين، خصوصا أن مدنهم ومزارعهم ومدارسهم هي الأقرب للمدنية على الطراز الأوروبي، بينما المدن العربية بدائية وبسيطة! وغير ذلك كثير جدا من المعلومات والحقائق التي انتصرت في النهاية لفكرة قيام إسرائيل. ناهيك بلغة الكاتب الممتعة وهو يتنقل بك من الدين إلى الأدب إلى الفولكلور إلى السياسة، بحيث في النهاية تعبر معه تاريخ اليهود في العالم، وتاريخ المنطقة، وتعرف كيف تم الغدر بالعرب أو كيف انهزم العرب ولماذا؟ وما دور الحقائق والأساطير في الأمر كله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



مقدمة المؤلف

لا يمكن لبشر أن يعيش إلى الأبد، فالأبد فترة طويلة جدًا، والحياة مرهقة جدًا، والبشر في النهاية مصيرهم إلى زوال.

لا يمكن لبشر أن يعيش إلى الأبد، ولكن الشعوب يمكنها ذلك، الشعوب يمكنها أن تنقل بذرتها ومخزونها الإنساني من جيل لجيل، ومن عقل لعقل، ومن قلب لقلب، ليكرر التاريخ نفسه، ويطوي صفحاته فاتحًا صفحات جديدة تختلف أو تتشابه في الفكرة والمضمون، لتروي قصة الإنسان المختبئ وراءها، والكامن في كل التفاصيل.

"مئة عام على وعد بلفور" هو رحلة عبر الأدب والوثائق التاريخية تروي قصة قديمة نمت وتطورت، وما زالت تُلقي ظلالها على الحاضر، وتستعد لأن تمتد في المستقبل لأمد غير معلوم.

"مئة عام على وعد بلفور" هو قصة ذلك العبراني الذي خرج من بلاد بين النهرين راحلا لأرض كنعان، مدفوعًا بحالة من الجوع والعطش التي تلهب غرائزه وتتحدى رغباته، وتسوقه لمصير مجهول.

ذلك العبراني صاحب الرؤية الغامضة، والوعد المقدس، بمدينة مباركة وعالم أفضل وحظوة وتفضيل من الرب.

ذلك العبراني الذي قُتل عشرات المرات على أيادي الفراعنة والآشوريين والفرس واليونان والرومان والعرب، ولكنه ظل على قيد الحياة، والذي خرج من أرضه الموعودة ليُستعبد في مصر، ويُسبى في بابل، ويُشرد في سوريا، ولكنه ظل قادرًا على الاستمرار.

ذلك العبراني الذي أزهقَ عشرات الأرواح وأراق أنهار الدماء، ولم يسلم من سيفه أعداؤه، وحلفاؤه، وأنبياؤه، وشياطينه، والأغراب من حوله، وعشيرته الأقربون.

الذي فُرض عليه التيه والتشرد، وفرض على مملكته الخراب والدمار، فخرج مسافرًا في أنحاء الأرض، متخذًا طريقًا وعرًا متسلحًا فيه بكل حيل البقاء وكل دروب الدهاء، خائضًا كل الأهوال ومرتكبًا كل الشرور والخيرات، ومتحالفًا مع الجميع، غير موقن إلا بنفسه، وغير مؤمن إلا بمصلحته الشخصية، لا يستره بين الناس إلا الغربة، ولا يسد نهمه إلا الرغبة في المزيد، ولم يعبأ إطلاقا بما يظن به الآخرين.

"مئة عام على وعد بلفور" هو قصة يجب أن نقرأها بعناية، لا لغرض إلا اكتساب العلم وتحقيق المتعة، فاتحين عقولنا وقلوبنا للتساؤلات التي لعلها تكون دليلا لنا في فهم أنفسنا والعالم من حولنا، وطبيعة العلاقة مع الآخر في المنطقة، بشكل ربما يكون أفضل وربما لا يكون كذلك؛ فهو في النهاية محاولة أتمنى أن تكون في الاتجاه الصحيح.

ميسرة صلاح الدين

الإسكندرية

يوليو 2017

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



العبرانيون وميراث من الأدب الخالد

للتاريخ أفعاله الغامضة ورؤيته الخاصة وطرقه المتفردة في الحكم على الأشياء، فتارة يمنح الحياة، وتارة يحكم بالموت، وتارة يخلد الأشخاص ويبرز الملاحم العظيمة، وتارة أخرى يخفيها ويعتم على أبطالها أو ينسبها لآخرين.

والبحث في جسد التاريخ عملية مليئة بالتعقيدات والصعوبات، محفوفة بالتيه والمخاطر، وإن كان للتاريخ شريك فاعل وعقل مدبر يحفظ ويمحو ويسجل ويقتص ويكافئ ويعاقب، فلا شك أنه "الأدب".

الأدب بكل أشكاله وتجلياته، كالحكي والشعر والمسرح والتدوين، وباقي الفنون السردية بأنواعها المختلفة، تلك الفنون التي لعبت دورًا كبيرًا في تاريخ البشرية، بل كانت هي تاريخ البشرية قبل أن يعرف التاريخ نفسه ويدرك أهميته.

يمكنني أن أتخيل الإنسان الأول على وجه الأرض حَكَّاءً يجمع أقرانه حول النار ليسرد عليهم أحداث يومه، ويصور ما واجهه من مصاعب وعقبات كبطولات صغيرة، ومغامرات متنوعة ومتجددة تناسب حداثة عمره على الأرض، وبداية معرفته بالأشياء، ومع مرور الزمن وإعمال الخيال، تداخلت الحكايات وأصبح من الصعب التمييز بين الواقعي والخيالي، وبين الشخصي والجماعي.

ويمكنني أن أتخيل الإنسان الأول على وجه الأرض نحّاتًا ورسامًا، فكان ينحت ويرسم على صخور الكهوف المخلوقات التي يقابلها، والأفكار التي تدور بعقله، والحكايات التي يرويها ويسمعها، لتشهد نيران السهرات المشتعلة وأقمار الليالي الطويلة وجدران الكهوف والمغارات على الوقائع الأولى في حياة الإنسان، وتنقل تلك الوقائع والخيالات كرسائل واضحة أو مشفرة لأبنائه في المستقبل، تؤثر في عقولهم وتحرك مصائرهم، وترشدهم لما ظنه هو الحقيقة والصواب.

وقد أثبت التاريخ، على مر عصوره والواقع المعاصر، أن نقوش الماضي وكتاباته وحكاياته التليدة لها الأثر الأعظم حتى اليوم في توجيه البشرية، وتشكيل وعيها ووجدانها المعاصر، ورسم ملامح حاضرها وربما مستقبلها القادم.

إن التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل الذي ظهر في أعقاب الثورة الصناعية، وبلغ مداه ما بعد الحرب العالمية الثانية، وثورات الإنسان المتكررة على ميراث الأجداد، لم تنجح بشكل كلي ومتكامل في خلق وعي بشري جديد بالعالم وأبعادهِ غير المادية والميتافيزيقية، وما زالت أعداد كبيرة من البشر تفكر كما كان يفكر الأجداد، وتنساق وراء رؤيتهم ومفاهيمهم.

ويمكننا أن ندرك، بشكل واضح وغير قابل للشك، ما للأدب والتدوين من تأثيرات حقيقة وفعالةٍ في تاريخ الشعوب وصراعها من أجل البقاء، من خلال دراسة وتحليل تاريخ بني إسرائيل وأجدادهم العبرانيين، وما مثله لهم الأدب والثقافة عبر العصور في تكوين قوامٍ متماسك لذلك الشعب، ومرجعيةٍ ذهنية ربطت وجمعت بين قلوبهم وعقولهم كنقطة التقاء شديدة الصلابة والرسوخ، رغم تفرقهم وشتاتهم في شتى بقاع الأرض.

ولصعوبة هذا البحث وشدة حساسيته، فقد تم التعامل مع النصوص التوراتية والتلمودية من الناحية الأدبية فقط، ودون أي اعتبارات أخرى قد تكون سببًا في الانحراف عن المسار المطلوب والبعد عن الأهداف الرئيسية، وذلك عن طريق الاشتباك فنيًّا وأدبيًّا مع تلك التدوينات، دون الرغبة في إثبات أو نفي أي قصة أو رواية بداخلها، أو التشكيك في أي حدث أو شخصية وردت خلالها، فالهدف الأساسي هو إثبات أهمية تلك الكتابات القديمة على أشكالها المختلفة في حياة ذلك الشعب، وغيره من الشعوب، وما كان لها من أثر هام في تشكيل وعيه ووجدانه وهويته.

بدأت القصة في أرض الكلدانين، وتحديدًا في جنوب الرافدين "دجلة والفرات" وبطلها النبي أبرام أو أفراهام، الذي، بحسب المراجع الأدبية اليهودية، تمتد جذوره مباشرة للنبي نوح، الأب الثاني للبشرية وحامل لوائها من بعد آدم.

وقد ولد أبرام في مدينة حاران، وعاش مع والده تاراح الذي كان يعمل صانعًا للتماثيل، في مجتمع بدائي يقدس آلهةً مختلفة وقوى عليا غامضة، وكائنات سماوية نُسب إليها كل الفضل، وحيكت حولها كل الأساطير الخاصة بخلق العالم وتسيير شؤون الكون، وتقلبات الأرض وظواهرها الطبيعية.

وكان أهل المدينة يتعبدون لتلك الآلهة ويسعون لإرضائها، كما كانوا يقيمون المذابح على الجبال والمرتفعات العالية لتقديم الأضاحي والقرابين الحيوانية - أو حتى البشرية - بحسب بعض الروايات، ثم يحرقون عظامها وبقاياها بالكامل عن طريق الحطب.

ويروي العهد القديم أن أبرام، في خضم تلك الأجواء وبعد موت أخيه هاران مباشرة، أبي النبي لوط، ترك مدينته واتجه إلى أرض كنعان "فلسطين الحالية" وذلك بدعوى من الرب.

"وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إلى الأرض الَّتِي أُرِيكَ.

فَأجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأبَارِكَكَ وَأعظم اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. وَأبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأرض."

سفر التكوين – العهد القديم

وإذا توقفنا أمام هذا النص وحاولنا قراءته من خلال عدة مستويات مختلفة من التلقي، يمكن أن نستخلص مجموعة من الحقائق التي كانت فارقة في الفكر والمعتقد العبراني المبكر، والتي ترتبط بشكل كبير بفكر ورؤية الشعوب القديمة.

فالمستوى الأول الواضح والمباشر هو الأمر بالخروج لأبرام من أرض الشرك والوثنية لأرض جديدة، لتأسيس دين جديد وعبادة إلهٍ جديد مختلف عما عبد آباؤه الأولون، فخرج أبرام بأهله وولده وماله ملبيا ذلك النداء.

والمستوى الثاني، وهو الأبعد منالاً والأقرب للتفسير تاريخيًّا لتلك الحقبة، يشي بأن الآلهة قديمًا كانت ترتبط بالمساحات الجغرافية، وأن الأقوام قديمًا كانوا يعبدون في كل أرض إلهًا مختلفًا ويبجلونه، ولكنهم لا ينكرون الآلهة الأخرى التي تعبد في أراضي غيرهم، حتى إنهم كانوا يشركونها بالعبادة مع آلهتهم في السفر والغربة.

فكل شعب له إله يعبده في مساحة جغرافية محددة، وملك أو قائد يدبر أمره ويتزعمه، وبطاعة ذلك الملك أو الزعيم تتم طاعة الإله الذي يتجسد فيه وينقل من خلاله أوامره لشعبه، فكان لزامًا على أبرام أن يخرج من أرضة، بعيدا عن إله قومه، لينشئ ديانة جديدة ترتبط بالأرض التي اعتبرها وجهته، وباركها إلهُه الجديد وسماها له "أرض الميعاد".

والمستوى الثالث، أن ذلك الوعد لم يذكر أن تلك الأرض الموعودة لها شعبها وديانتها الخاصة، وهو الأمر الذي سيؤجج الصراع بين العبرانيين وبين ذلك الشعب لقرون عدة قادمة.

وبالمتابعة لنفس القصة

"فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ.فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ، وَكُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إلى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوْا إلى أَرْضِ كَنْعَانَ. وَاجتازَ أَبْرَامُ فِي الأرض إلى مَكَانِ شَكِيمَ إلى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأرض. وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأرض». فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إلى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيل وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتُ إِيلَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَايُ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ. ثُمَّ

ارتحَلَ أبْرَامُ ارتحَالاً مُتَوَالِيًا نَحْوَ الْجَنُوبِ. وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأرض، فَانْحَدَرَ أبْرَامُ إلى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ، لأن الْجُوعَ فِي الأرض كَانَ شَدِيدًا."

سفر التكوين- العهد القديم

ولم تكن كلمة إسرائيل قد عرفت في هذا الوقت، ولا حتى كلمة يهودية، فهي كلمات ستظهر لاحقًا كما سنورد بالتفصيل، بل سُمي شعب أبرام "إبراهيم" بالعبرانيين، ويذكر التاريخ أن العبرانيين شعب رعوي أصوله الأولى آرامية، وعندما وصل العبرانيون لأرض كنعان استمر على طبيعته الرعوية المتنقلة، فلم ينخرط في البداية مع الكنعانيين ولم يبن أهله بيوتًا ولا زرعوا أرضًا، بل ظلوا في حالة من الترحال، بين جنوب أرض كنعان وبئر سبع والعريش وصحراء سيناء وصولا إلى مصر، وكانوا يقيمون في الوديان والسهول بداخل الخيام، ويصعدون إلى قمم الجبال والمرتفعات للتعبد وتقديم الأضاحي.

ويجب أن نذكر أن أهل كنعان والفلسطينيين والسوريين والأشوريين، سكان تلك المناطق، كانوا أصحاب أدب وفكر ولغة وثقافة عظيمة، في تلك العصور وفي العصور اللاحقة، فكانوا بارعين في التجارة، يجيدون القراءة والنسخ والتدوين، وكانت تنتشر في تلك المنطقة عدة لغات، كالأكادية والسومرية والمصرية القديمة، وكانوا يكتبون مقطوعات شعرية موزونة تصف صلواتهم وشعائرهم المقدسة وطقوسهم لعبادة الإله بعل وزوجته عشتار، وكانوا يسمونه السيد أو LORD وكان يُعرف أيضا هناك إله آخر يعبدونه ويبجلونه بصفته الإله الأعظم وكبير الآلهة ويسمى "إيل".

وكانت من صفاته أنه "أبو السنين" و"خالق الخلائق" و"كبير مجمع الآلهة "، وقد بنوا له معبدًا ضخمًا في ذلك الوقت سُمي باسمه "بيت إيل"، وقد تأثر العبرانيون بثقافة تلك الشعوب فتعلموا منها وتفاعلوا معها بشكل كبير.

وإذا مضينا قدمًا في العهد القديم، وتركنا قصة الميعاد وأرضه، فإننا نجد أنفسنا أمام قصة أخرى يجب أن نتوقف معها وننظر إليها بشيءٍ من الفحص والتدقيق، وهي قصة الذبح العظيم أو "الفداء"، والتي كانت الاختبار أو التكليف الثاني من الرب لأبرام، إذ أمر أن يذبح ابنه إسحاق حسب الرواية التوراتية، وهي رواية خلافية بين أصحاب الديانات الإبراهيمية، يصب الخلاف فيها حول شخصية الذبيح إن كان إسحاق أو إسماعيل اللذان كانا شقيقين من أمين مختلفتين، إحداهما عبرانية تسمى "سارة"، وهي أم إسحاق الابن الأصغر، والأخرى جارية مصرية تسمى "هاجر"، وهي أم إسماعيل الابن الأكبر، وبالتالي الخلاف حول الاعتراف بفضل إسماعيل ومكانته، وكذلك نسب الأنبياء وقبائلهم ودرجة التصاقهم بالنبي "أبرام/إبراهيم" من بعده.

لكن هذا الأمر لا يؤثر كثيرا في الرؤية الفنية والأدبية، والأثر النفسي الذي تركته تلك القصة برواياتها المختلفة، التي وردت كالتالي:

"وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأمور أن اللهَ امْتَحَنَ إبراهيم، فَقَالَ لَهُ: يَا إبراهيم!. فَقَالَ: هأَنَذَا.

فَقَالَ: «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَاذْهَبْ إِلى أَرْضِ الْمُرِيَّا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أحد الْجِبَالِ الَّذِي أقول لَكَ، فَبَكَّرَ إبراهيم صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ، وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ، وَإِسْحَاقَ ابْنَهُ، وَشَقَّقَ حَطَبًا لِمُحْرَقَةٍ، وَقَامَ وَذَهَبَ إلى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَفَعَ إبراهيم عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ، فَقَالَ إبراهيم لِغُلاَمَيْهِ: اجْلِسَا أَنْتُمَا ههُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلاَمُ فَنَذْهَبُ إلى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجعُ إِلَيْكُمَا فَأَخَذَ إبراهيم حَطَبَ المحرَقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَاقَ ابْنِهِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ النَّارَ وَالسِّكِّينَ. فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا. وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إبراهيم أَبَاهُ وَقَالَ: يَا أَبِي! فَقَالَ: هأَنَذَا يَا ابْنِي. فَقَالَ: هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟ فَقَالَ إبراهيم: اللهُ يَرَى لَهُ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي. فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا. فَلَمَّا أَتَيَا إلى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ، بَنَى هُنَاكَ إبراهيم الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ. ثُمَّ مَدَّ إبراهيم يَدَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ. فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: إبراهيم! إبراهيم! فَقَالَ: هأَنَذَا فَقَالَ: لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إلى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآن عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي. فَرَفَعَ إبراهيم عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إبراهيم وَأَخَذَ الْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ.

فَدَعَا إبراهيم اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ «يَهْوَهْ يِرْأَهْ». حَتَّى إنه يُقَالُ الْيَوْمَ: فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى. وَنَادَى مَلاَكُ الرَّبِّ إبراهيم ثَانِيَةً مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، إِنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأمر، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكثر نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أمم الأرض، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي".

سفر التكوين – العهد القديم

فيبدو أن حالة القلق والتوتر قد نالت من نفس الأب أبرام، وحالة من التساؤل والغموض قد نالت من الابن إسحاق، الذي خرج مع أبيه وقد حمل بنفسه الحطب - الذي كان مقدرًا أن يحرق جثته بعد أن يُضحى به تقربا للرب - على كتفه وسار به ليصعد الجبل، وظل يبحث بقلق عن الأضحية ويتساءل عن مكانها، ولكنه لا يجد إجابة، ويقوم الأب أبرام بربط ابنه على المذبح، امتثالا لأوامر الرب ودخولا في طاعته، رافعا السكين ليذبحه.

يبعث ذلك النص بشكل درامي متصاعد، مشوب بالترقب القلق والاختبارات المفجعة، رسالة أخرى يستمر تأثيرها طويلاً ومتعمقًا في النفوس، وهي أن الطريقة المثلى لإرضاء الرب ونيل بركته هي أن تبذل كل غالٍ ونفيس، فيهون عليك وطنك "بالرحيل"، ويهون عليك أبناؤك "بالتضحية"، وعند الوصول لتلك الحالة من الخضوع، وتلك القدرة على التضحية، ستكون المكافأة جزيلة، ويكون العطاء وفيرًا.

ورغم أن هذا هو المعنى البديهي الواضح من القصة، فإن هناك معنى آخر شديد الأهمية والحضور، فقد بُشِّرَ أبرام بأن يرث نسله باب أعدائه، لتصبح العداوة بين العبرانيين وبين غيرهم من الشعوب عداوة مقدسة، ومرتبطة بواحدة من أهم وأكثر قصص التوراة تأثيرا وشيوعًا، وواحدٍ من أهم الاختبارات الدرامية التي فرضها الرب على الإنسان، ما يبرر الكثير مما سوف يحدث لاحقًا في تلك المناطق من صراع مقدس، أركانه الأرض والتضحية ودم الأعداء.

ومع مرور الوقت وتغير الزمن، وبعد حدوث مجاعة كبرى في كنعان، هاجر العبرانيون إلى مصر وعاشوا فيها، وحسب آدابهم القديمة، فقد هاجروا إلى مصر من قبل عصر الهكسوس، ثم عايشوا عصر الهكسوس كاملاً، ثم عصر التحرير والملك أحمس، وعصر الأسرتين الثامنة عشر والتاسعة عشر، ليشهدوا ملوك مصر العظام مثل "سيتي الأول ورمسيس"، ونتيجة لتلك المعايشة والاحتكاك بحضارة غنية، كالحضارة الفرعونية وأساطيرها وحكاياتها المتنوعة، بدأت ثقافتهم تتغير بعد أن سكنوا وادي النيل، وبدأت الطبيعة الرعوية تشاركها طبيعة أخرى جديدة تميل إلى الاستقرار والبناء، كما تأثروا بالثقافة المصرية القديمة التي كانت تقدس الحياة الأخرى وتستعد للموت، وتنشد للآلهة وتتقرب لهم بالكثير من الطقوس والعبادات والمظاهر.

كما سبق هذا التغيير الاجتماعي المهم تغيير آخر، لا يقل أهميه وخطورة، وهو تغيير في المسمى الذي يطلقه العبرانيون على أنفسهم، فقد تغير اسم تلك المجموعة من البشر الرعويين الرحل لاسم آخر أكثر خصوصية وانتسابًا إلى فكر وعقيدة جديدة، بدأت في التشكل وصار لها عرفٌ ومنهجٌ، فصاروا "بني إسرائيل"، وبناء على رواية التوراة، فإن إسرائيل هو الاسم الجديد ليعقوب الذي صارع الرب وصرعه.

"فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ، وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ. وَلَمَّا رَأَى أنه لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِهِ، فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. وَقَالَ: أطلقنِي، لأنه قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ. فَقَالَ: لاَ أطلقكَ إن لَمْ تُبَارِكْنِي. فَقَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟ فَقَالَ: يَعْقُوبُ. فَقَالَ: لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ. وَسَأَلَ يَعْقُوبُ وَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ.

فَقَالَ: لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟ وَبَارَكَهُ هُنَاكَ. فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ فَنِيئِيلَ قَائِلاً: لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي. وَأَشْرَقَتْ لَهُ الشَّمْسُ إذ عَبَرَ فَنُوئِيلَ وَهُوَ يَخْمَعُ عَلَى فَخْذِهِ. لِذلِكَ لاَ يَأْكُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ عِرْقَ النَّسَا الَّذِي عَلَى حُقِّ الْفَخِذِ إلى هذَا الْيَوْمِ، لأنه ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِ يَعْقُوبَ عَلَى عِرْقِ النَّسَا".

سفر التكوين – العهد القديم

فتغُيُّر الاسم من "العبرانيين" إلى "بني إسرائيل" يحمل دلالة كبرى على تغير الفكر والهوية، والتصاقهم بشكل أكبر بالتراث الديني ومدلولاته، وتطورا كبيرا في علاقة الشعب بالرب وملاك الرب.

وتروي النصوص الدينية أن أبناء يعقوب هم من هاجروا إلى مصر في عصر المجاعة، وقد اكتشف أحد العلماء الألمان اسمًا محفورًا على صخور جبل سيناء هو اسم (يوسف بن يعقوب)، وقد رجح العلماء رجوعه إلى عصر الملكة حتشبسوت 1500 - 1480 ق.م.

وارتباطا بسلسلة التغييرات الجوهرية في فكر العبرانيين، فقد حدث تغير آخر يمكن أن نعتبره أشد خطورة من كل ما سبقه، فقد تم استعمال كلمة "يهوة" كاسم جديد للإله بدلا من "ألوهيم".

ولهذا الاسم الجديد دلالات ثقافية وفكرية متعددة، مرتبطة بطبيعة الإله وصورته في الأذهان، وطريقه تفاعل بني إسرائيل معه.

كان قد بدء استعمال اللفظ "ألوهيم" للتعبير عن الرب وهو مشتق من اللفظ "أل" بمعنى إله باللغة السامية، ويعنى كبير الآلهة أو الإله الأعظم، وهي الكلمة التي وردت في التوراة وتكررت نحو 2500 مرة.

وجاءت في السفر الأول من الإصحاح الأول كالكلمة الثالثة في ترتيب التوراة باللغة العبرية.

"הַשָּׁמַיִם, וְאֵת הָאָרֶץ."

وتنطق "بيشيت بارا ألوهيم "

والتي ترجمت للُّغات الأخرى

"في البدء خُلق الرب "

"In the beginning God created"

وقد تم استخدامها مرات بصيغة المفرد، ومرات بصيغة الجمع، ويرجح أن المقصود من صيغة الجمع كبير الآلهة أو مجمع الآلهة، وهو ما أرجعه باحثو ومفسرو التوراة إلى أن عقيدة التوحيد لم تكن استقرت في نفوس

العبرانيين بشكل كامل، فكانوا يعبدون إلههم وآلهة أخرى مختلفة في نفس الوقت، ويقدسونها ويقدمون لها القرابين والمذابح.

وعند جمع التوراة، في عصور لاحقة، وضم رواياتها وأجزائها المختلفة من شتى المصادر، سميت النصوص والمخطوطات التي ورد فيها ذلك الاسم، والمشتقات المتعلقة به، المصدر الألوهي أو الألوهيمي للتوراة Elohist وسمى كتبت التوراة الذين استخدموا هذا الاسم بالمجموعة E.

وتم تصوير الرب أقل شبها بالإنسان من المصادر الأخرى، لا يتصل به بشكل مباشر، ولا يتحدث معه إلا من خلال حجاب، كالنار أو الغمام، أو من خلال الملائكة والرؤى والأحلام، كحلم يوسف وحلم يعقوب، وكانت القصص التي اعتمدت على هذا المصدر مليئة بالتفاصيل النفسية، والوصف الدقيق لمشاعر أبطالها وأفكارهم الخاصة التي كانوا لا يبوحون بها للعلن، كلقاء يوسف وإخوته، أو ذبح إسحاق.

وقد تم تغيير ذلك الاسم في عهد موسى، بظهور التسمية الجديدة للرب "يهوه".

وهو اللفظ الذي استخدم لأول مرة في سفر الخروج:

وَقَالَ اللهُ أيضا لِمُوسَى: "هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: يَهْوَهْ إِلهُ آبَائِكُمْ، إِلهُ إبراهيم وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. هذَا اسْمِي إِلى الأَبَدِ وَهذَا ذِكْرِي إلى دَوْرٍ فَدَوْر اِذْهَبْ وَاجْمَعْ شُيُوخَ إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمُ: الرَّبُّ إِلهُ آبَائِكُمْ، إِلهُ إبراهيم وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ظَهَرَ لِي قَائِلاً: إِنِّي قَدِ افْتَقَدْتُكُمْ وَمَا صُنِعَ بِكُمْ فِي مِصْرَ فَقُلْتُ أُصْعِدُكُمْ مِنْ مَذَلَّةِ مِصْرَ إِلى أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأموريِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، إلى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً."

سفر الخروج- العهد القديم

"أَنَا ظَهَرْتُ لإبراهيم وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بِأَنِّي الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَأَمَّا بِاسْمِي «يَهْوَهْ» فَلَمْ أُعْرَفْ عِنْدَهُمْ. وأيضا أَقَمْتُ مَعَهُمْ عَهْدِي: أن أُعْطِيَهُمْ أَرْضَ كَنْعَانَ أَرْضَ غُرْبَتِهِم الَّتِي تَغَرَّبُوا فِيهَا.

وَأَنَا أيضا قَدْ سَمِعْتُ أَنِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ يَسْتَعْبِدُهُمُ الْمِصْرِيُّونَ، وَتَذَكَّرْتُ عَهْدِي.

ذلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَا الرَّبُّ. وَأَنَا أُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَبِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ، وَأتخذُكُمْ لِي شَعْبًا، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمُ الَّذِي يُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ. وَأُدْخِلُكُمْ إلى الأرض الَّتِي رَفَعْتُ يَدِي أن أُعْطِيَهَا لإبراهيم وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. وَأُعْطِيَكُمْ إِيَّاهَا مِيرَاثًا. أَنَا الرَّبُّ."

وكلمة يهوه Yahweh وتكتب jahova بالألمانية، قد تكررت بعد هذا في التوراة نحو 7000 مرة، وسميت النصوص والمخطوطات التي ورد بها هذا الاسم المصدر اليهويّ Yahuistic ، وسمي كتبتها بالمجموعة J وكانت القصص المنتمية لذلك المصدر سريعة الأحداث رشيقة الإيقاع؛ مليئة بالمواقف والشخوص على حساب التفاصيل الأخرى، وكانت صفات الرب في ذلك المصدر أكثر إنسانية، وتميل أوصافه لأوصاف البشر، فهو يتكلم بشكل مباشر معهم، ويتصارع ويتألم ويغضب ويتأسف، ليبدو أن رؤيتهم وتفسيرهم لصفات الرب ودوره ينبع من حاجتهم لإله ملاصق لهم في رحلة الخروج، وفي حروبهم مع الشعوب الأخرى، فتارة يقلب عجلات فرعون الحربية، وتارة يغلق باب السفينة على نوح قبل حدوث الطوفان، وتارة يشم رائحة الذبح والقرابين، وتارة يزور إبراهيم ويتناول معه العشاء.

وتجدر الإشارة إلى أن المصادر الأُلوهيمية قد ارتبط مؤرخوها وكُتّابها - المجموعة E - بشكل أكبر بالمملكة الشمالية لإسرائيل، التي استقلّت عن مملكة إسرائيل الكبرى بعد عهد الملك سليمان، وقد تم تدميرها وتفريق شعبها.

أما المصادر اليهوية فقد انتمى كتابها ومؤرخوها - المجموعة J - بشكل أكبر للمملكة الجنوبية لإسرائيل، وهي المملكة التي استمر شعبها في التاريخ، وجمعت التوراة فيما بعد، ما يفسر شيوع اسم يهوه بشكل أكبر في التوراة.

ورغم هذه التغيرات الجلية في وصف الإله وطبيعته، فإنه في الحالتين ظل إلها قوميًا خالصًا لبنى إسرائيل، وذا علاقة لها طبيعة خاصة معهم، لا يرتبط بغيرهم من الشعوب، وإن ارتبطوا هم في أحيان كثيرة بعبادة غيره من الآلهة الأخرى، قبل أن تستقر لديهم فكرة التوحيد.

وبسبب أن التركيبة السكانية لبني إسرائيل قد تغيرت، بعد الخروج من مصر، باختلاط أصولهم الآرامية بالمصريين والكنعانيين وأهل مديان، الذي صاهر موسى كاهنهم يثرون، فقد اهتم المصدر اليهوي أيضا بالأنساب "نسل حام، نسل لوط" وبالملابس، والصناعات، والنبيذ، والزراعة، وهو ما يختلف عن الثقافة الرعوية الأولى للعبرانيين، التي لم تكن تهتم بالمدينة ولا بعاداتها.

ونلاحظ أن هجرة بني إسرائيل مع موسى من مصر هي الهجرة المعكوسة لهجرة إبرام من الأراضي الكلدانية، فلكليهما نفس الوجهة "أرض الميعاد"، ونفس الأسباب، بشكل تقريبي، وإن اختلفت التفاصيل.

وإذا صرفنا النظر عن عدد المهاجرين في الرحلتين، وصرفنا النظر - أيضا - عن الظروف والدوافع التي قادتهم لتلك الرحلة، وعن نوعيه الأهوال والابتلاءات التي لاقوها في الطريق، فإن التشابه بين الرحلتين واضح بشكل كبير؛ فكلاهما خرج من أرض تعبد آلهة متعددة، بعد رحلة من الإنكار والتعذيب المادي أو المعنوي، ليفر لأرض جديدة موعودة، حسب توجيهات إله، أيًا كان اسمه أو وصفه، لتصبح تلك الهجرة بمثابة عقد وميثاق للطاعة والإخلاص، يمنح بموجبة البركة والقوة، ويتميز شعبه عن بقية الشعوب الأخرى.

ويلعب الفارق الزمني بين القصتين، وزيادة القدرة على التدوين والصياغة، وتطور الخبرة والمهارات، دورًا رئيسيًا في تصوير الصراع العنيف بين موسى وفرعون مصر، ليخرج بشكل ملحمي أسطوري يفيض بالمعجزات والمفارقات والمواقف الدرامية شديدة التعقيد والحبكة، وفي تصاعد مشوق ينتهي بشق البحر وعبور بني إسرائيل من خلاله، وغرق الجيش الفرعوني بعجلاته الحربية وخيوله وعتاده.

وقد تجلت الصفات الإنسانية للرب، بشكل واضح وصريح، في مساعداته المتعددة وتدخله المباشر في التغلب على فرعون وقومه...

"وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى فِي مِدْيَانَ: اذْهَبِ ارْجِعْ إلى مِصْرَ، لأنه قَدْ مَاتَ جَمِيعُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا يَطْلُبُونَ نَفْسَكَ. فَأَخَذَ مُوسَى امْرَأَتَهُ وَبَنِيهِ وَأَرْكَبَهُمْ عَلَى الْحَمِيرِ وَرَجَعَ إلى أَرْضِ مِصْرَ. وَأَخَذَ مُوسَى عَصَا اللهِ فِي يَدِهِ. وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: عِنْدَمَا تَذْهَبُ لِتَرْجعَ إلى مِصْرَ، انْظُرْ جَمِيعَ الْعَجَائِبِ الَّتِي جَعَلْتُهَا فِي يَدِكَ وَاصْنَعْهَا قُدَّامَ فِرْعَوْنَ. وَلكِنِّي أُشَدِّدُ قَلْبَهُ حَتَّى لاَ يُطْلِقَ الشَّعْبَ. فَتَقُولُ لِفِرْعَوْنَ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِسْرَائِيلُ ابْنِي الْبِكْرُ. فَقُلْتُ لَكَ: أطلق ابْنِي لِيَعْبُدَنِي، فَأَبَيْتَ أن تُطْلِقَهُ. هَا أَنَا أَقْتُلُ ابْنَكَ الْبِكْرَ. "

سفر الخروج – العهد القديم

أو كما جاء في موضع آخر من نفس السفر.

"ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: قَلْبُ فِرْعَوْنَ غَلِيظٌ. قَدْ أَبَى أن يُطْلِقَ الشَّعْبَ. اِذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ فِي الصَّبَاحِ. إنه يَخْرُجُ إلى الْمَاءِ، وَقِفْ لِلِقَائِهِ عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ. وَالْعَصَا الَّتِي تَحَوَّلَتْ حَيَّةً تَأْخُذُهَا فِي يَدِكَ. وَتَقُولُ لَهُ: الرَّبُّ إِلهُ الْعِبْرَانِيِّينَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ قَائِلاً: أطلق شَعْبِي لِيَعْبُدوني فِي الْبَرِّيَّةِ. وَهُوَذَا حَتَّى الآن لَمْ تَسْمَعْ. هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: بِهذَا تَعْرِفُ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ: هَا أَنَا أَضْرِبُ بِالْعَصَا الَّتِي فِي يَدِي عَلَى الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَيَتَحَوَّلُ دَمًا. وَيَمُوتُ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَيَنْتِنُ النَّهْرُ. فَيَعَافُ الْمِصْرِيُّونَ أن يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ. ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: قُلْ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى مِيَاهِ الْمِصْرِيِّينَ، عَلَى أَنْهَارِهِمْ وَعَلَى سَوَاقِيهِمْ، وَعَلَى آجَامِهِمْ، وَعَلَى كُلِّ مُجْتَمَعَاتِ مِيَاهِهِمْ لِتَصِيرَ دَمًا.

فَيَكُونَ دَمٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ فِي الأَخْشَابِ وَفِي الأَحْجَارِ. فَفَعَلَ هكَذَا مُوسَى وَهَارُونُ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ. رَفَعَ الْعَصَا وَضَرَبَ الْمَاءَ الَّذِي فِي النَّهْرِ أَمَامَ عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عُيُونِ عَبِيدِهِ، فَتَحَوَّلَ كُلُّ الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ دَمًا. وَمَاتَ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَأَنْتَنَ النَّهْرُ، فَلَمْ يَقْدِرِ الْمِصْرِيُّونَ أن يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ. وَكَانَ الدَّمُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ".

سفر الخروج – العهد القديم

وفى موضع ثالث يوصَف الرب بالرجل المحارب، أو رجل الحرب، وهو تشبيه له دلالات معنوية ومادية عدة، تتناسب مع مستوى خطورة الحدث والمطاردات العسكرية التي تجري في أرض مصر، بين الرب "رجل الحرب" وشعبه الأعزل الذي يحتاج الحماية، وبين فرعون وجيشه:

"الرَّبُّ رَجُلُ الْحَرْبِ. الرَّبُّ اسْمُهُ".

سفر الخروج – العهد القديم

ويستمر الوصف الإنساني للرب في سفر الخروج:

" يَمِينُكَ يَا رَبُّ مُعْتَزَّةٌ بِالْقُدْرَةِ. يَمِينُكَ يَا رَبُّ تُحَطِّمُ الْعَدُوَّ وَبِكَثْرَةِ عَظَمَتِكَ تَهْدِمُ مُقَاوِمِيكَ. تُرْسِلُ سَخَطَكَ فَيَأْكُلُهُمْ كَالْقَشِّ، وَبِرِيحِ أَنْفِكَ تَرَاكَمَتِ الْمِيَاهُ. انْتَصَبَتِ الْمَجَارِيَ كَرَابِيَةٍ. تَجَمَّدَتِ اللُّجَجُ فِي قَلْبِ الْبَحْرِ".

سفر الخروج – العهد القديم

تلك المساندة، وهذا القرب الواضح بين الرب وبين شعبه، لا يتناسب مع كم الإخفاقات والهزائم التي حدثت لذلك الشعب الذي كان معرضًا لأخطار خارجية جسيمة، ومحاصرًا بين دول عظمى وشعوب تتفوق عليه عسكريًا وتجاريًا وحضاريًا بأشكال لا يمكنه أن يضاهيها.

ولذلك كان لا بد من إضافة عامل آخر جديد شديد المنطقية، بالغ الخطورة، وهو مبدأ العقاب الإلهي لبني إسرائيل أنفسهم، كما حدث عندما خالفوا تعليمات الرب وميثاقه وصنعوا العجل الذهبي تشبها بآلهةِ المصريين القديمة، ليحدث تطور محوري في قصة بني إسرائيل ووعد الرب لهم.

ويُطرح سؤال للمرة الأولى، ثم يعاد طرحه مرارًا وتكرارًا، في شتى صفحات التوراة، بمنتهى القوة والوضوح. وهو السؤال حول مقدار طاعة بني إسرائيل للرب، ومدى استحقاقهم وعده، لتصبح المعادلة الفاصلة هي: الطاعة والأرض المقدسة أو المعصية والعقاب.

وفى إطار هذه الرؤية الجديدة، التي تطورت في التوراة عبر العصور، أصبحت القصص هي التي تخلق الشعب، والشعب هو الذي يخلق القصص، ما

يمنحه هوية جديدة، وروحًا مستمرة تمكنه من الصمود في وجه العواصف العاتية وقوى الأعداء "مصر، بابل، آشور" التي تنمو من حوله في كل جانب وتهدد كيانه الهش.

يختلف العديد من العلماء من شتى التخصصات حول حقيقة هذه القصص، ويشككون فيها مستندين لأبحاث تاريخية وأثرية، ومخطوطات ووثائق لشعوب قديمة، ودلائل وبراهين أخرى.

فمثلا يعتبر كثير من العلماء أن بني إسرائيل لم يستطيعوا من الأصل غزو كنعان بعد التيه، ولكنهم ذابوا في وسط شعبها واختلطوا بهم كمهاجرين، ويبرهنون على ذلك بعدم وجود طراز من المباني والأواني الفخارية يخص بني إسرائيل، في بدايات العصر الحديدي للبشرية، يخالف الطراز الكنعاني الذي وجد في نهايات العصر البرونزي، وكذلك لأن المكونات الثقافية الأُولى لبني إسرائيل تتشابه بشكل كبير مع الثقافة التي وصف بها أهل كنعان أنفسهم، في كتابتهم ومعابدهم.

ويختلفون بشدة مع رواية العهد القديم الخاصة بخروج 600 ألف رجل مع موسى من أرض مصر، فبحسب مبادئ الإحصاء البسيطة، فإن الجماعة التي قوام رجالها 600 ألف قد يتجاوز مجموع تعدادها "رجالا وأطفالا ونساء" المليوني نسمة، وهو العدد الذي لا يمكن لصحراء سيناء استيعابه، نظرا لطبيعتها الصحراوية وفقر مواردها.

كما أن هذا العدد الضخم من العبيد الفارين يوحي بأن سكان مصر، الذين نجحوا في استعبادهم، لا يقل عددهم عن 10 ملايين نسمة، وهو رقم مستحيل التحقق في ذلك العصر الذي يعتبر مبكرا في تاريخ البشرية.

ورغم مثل هذه الخلافات البحثية والعقائدية، وحتى العلمية، التي لا مجال لتتبعها وحصرها، فإن الواضح أن الهوية القومية والثقافية والفكرية لهذا الشعب قد بدأت، بشكل بسيط، في التنامي تدريجيًا عبر تلك الحكايات، حتى صارت واقعًا ملموسًا، وشكلت البذور الأولى لوجدان وعقيدة مؤسِّسة لواقع الصراع في تلك المنطقة، حتى عصرنا الحالي.

ونلاحظ أن ذلك التنامي الأدبي والدرامي قد زاد بشكل واضح بعد نهاية التيه في صحراء سيناء، وتكوين مملكة إسرائيل الموحدة. ويمكن أن نتخذ - كمثال على هذا - القصة الشهيرة بالملك داوود، وهو ثاني ملوك مملكة إسرائيل الكبرى، والذي كان يعتبر محاربًا عظيمًا؛ استطاع في سن مبكرة أن يقتل بطل الفلسطينيين "جليات" ويقطع رقبته.

"فَتَمَكَّنَ دَاوُدُ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّ بِالْمِقْلاَعِ وَالْحَجَرِ، وَضَرَبَ الْفِلِسْطِينِيَّ وَقَتَلَهُ. وَلَمْ يَكُنْ سَيْفٌ بِيَدِ دَاوُدَ. فَرَكَضَ دَاوُدُ وَوَقَفَ عَلَى الْفِلِسْطِينِيِّ وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَاخْتَرَطَهُ مِنْ غِمْدِهِ وَقَتَلَهُ وَقَطَعَ بِهِ رَأْسَهُ. فَلَمَّا رَأَى الْفِلِسْطِينِيُّونَ أن جَبَّارَهُمْ قَدْ مَاتَ هَرَبُوا. فَقَامَ رِجَالُ إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا وَهَتَفُوا وَلَحِقُوا الْفِلِسْطِينِيِّينَ حَتَّى مَجِيئِكَ إلى الْوَادِي، وَحَتَّى أبواب عَقْرُونَ. فَسَقَطَتْ قَتْلَى الْفِلِسْطِينِيِّينَ فِي طَرِيقِ شَعَرَايِمَ إلى جَتَّ وَإِلَى عَقْرُونَ. ثُمَّ رَجَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ الاِحْتِمَاءِ وَرَاءَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَنَهَبُوا مَحَلَّتَهُمْ. وَأَخَذَ دَاوُدُ رَأسَ الْفِلِسْطِينِيِّ وَأَتَى بِهِ إلى أُورُشَلِيمَ، وَوَضَعَ أدواتهِ فِي خَيْمَتِهِ."

سفر صموئيل – العهد القديم

ورغم شيوع هذه القصة وأهميتها التاريخية والرمزية في صياغة العلاقة بين بني إسرائيل وأعدائهم "الفلسطينيين" على مر التاريخ، الذين يتم تصويرهم دائمًا كأقوام جبابرة كثيفة العدد والعتاد، في مواجهة شعب إسرائيل الأقل عددا والأضعف سلاحًا، فإنه الشعب الأكثر إيمانًا والأحق بالنصر. وتشمل تلك الأحقية إباحة قتل الأعداء، وإباحة الاحتفاظ برؤوسهم، واغتنام أسلحتهم وأرضهم على حد السواء.

إلا أن هناك رمزية أخرى، وبطولة خفية في نفس القصة، يجب التنويه عنها، وهي تغلب داود الفتى راعي الغنم، على أعداء آخرين قد سولت لهم طبيعتهم المتوحشة مهاجمة أغنامه ومحاولة افتراسها، فقضى على أسد ودب بمنتهى البساطة واليسر، وحتى دون أن يعلم بذلك أهله وعشيرته من بني إسرائيل، وهو ما فاجأ به الملك شاؤول فبارك قتاله مع جليات.

" فَقَالَ دَاوُدُ لِشَاوُلَ: كَانَ عَبْدُكَ يَرْعَى لأَبِيهِ غَنَمًا، فَجَاءَ أَسَدٌ مَعَ دُبٍّ وَأَخَذَ شَاةً مِنَ الْقَطِيعِ، فَخَرَجْتُ وَرَاءَهُ وَقَتَلْتُهُ وَأَنْقَذْتُهَا مِنْ فِيهِ، وَلَمَّا قَامَ عليّ أَمْسَكْتُهُ مِنْ ذَقْنِهِ وَضَرَبْتُهُ فَقَتَلْتُهُ. قَتَلَ عَبْدُكَ الأسد وَالدُّبَّ جَمِيعًا. وَهذَا الْفِلِسْطِينِيُّ الأَغْلَفُ يَكُونُ كَوَاحِدٍ مِنْهُمَا، لأنه قَدْ عَيَّرَ صُفُوفَ الرب الْحَيِّ. وَقَالَ دَاوُدُ: الرَّبُّ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ يَدِ الأسد وَمِنْ يَدِ الدُّبِّ هُوَ يُنْقِذُنِي مِنْ يَدِ هذَا الْفِلِسْطِينِيِّ. فَقَالَ شَاوُلُ لِدَاوُدَ: اذْهَبْ وَلْيَكُنِ الرَّبُّ مَعَكَ".

سفر صموئيل – العهد القديم

وهذه القصة، التي تبدو قد مرت على الملك شاؤول بشكل سريع ولم يعلق عليها، أكثر خطورة وصعوبة من قتال البطل الفلسطيني، وتمنح داوود من صفات الأبطال الأسطورية أضعاف ما قد يمنحه قتل مخلوق بشري، حتى وإن كان محاربًا يبلغ من الطول ستة أقدام، في كامل عدته الحربية التي تجعله أشبه بأبطال الأساطير اليونانية.

ليصبح التفسير المتبقي لهذه القصة أنها كانت قصة رمزية، حيث يرمز الأسد والدب لقوة الشيطان، وانتصار داوود عليهما هو انتصار على الشر، وقد دعم تلك الفرضية أن الدببة لا يمكن أن تجمعها المعيشة في أرض واحدة مع الأسود كمفترسات طبيعية، ولا يمكن أن يتحد الأسد والدب في قطيع واحد ويقوما بعملية صيد مشتركة.

ربما هاجم كلا الحيوانين القطيع في وقت مختلف ومكان مختلف، إلا أن السياق العام يشير إلى تغلب داوود على الشيطان المتمثل في فم الأسد ومخالب الدب، واللذين تجرآ على مهاجمة أغنامه "شعبه ورعيته"، وقد كان هذا هو السبب في اختياره لمهمة قتل أعداء الرب من الفلسطينيين والانتصار عليهم.

وشخصية داوود هي من الشخصيات الدرامية المهمة في العهد القديم، والتي بدأت ملامحها في التشكل رويدًا رويدًا في أسفاره، فاسمه بالعبرية ديفيد، ويعنى المحبوب، فهو - كما ورد في وصفه - شاب أشقر قوي البنية، معتدل القوام، شديد الذكاء، وقوي الشكيمة، ماهر في الحرب والتخطيط والخداع، وفي نفس الوقت هو عازف موسيقى بارع، وشاعر خصب الخيال، غني التعبيرات، محب للنساء، له من المغامرات ما يجعله عاشقًا من طراز فريد، وقد ترك من المؤلفات والقصائد الكثير، وقد سميت تلك القصائد في العهد القديم "مزامير داوود"، واتخذت كوسيلة للصلوات والتعبد.

وتعتبر "مزامير داود" واحدًا من المداخل المهمة لفهم طبيعة العلاقة بين بني إسرائيل والرب. وكذلك واحدًا من المداخل المهمة للتعرف على رؤيتهم للدين والحياة والمجتمع المحيط، حتى وإن كانت بعض تلك المزامير قد تشابهت مع نشيد إخناتون الذي شاع في مصر في عهد سابق للخروج، وكان يتعبد به للإله آتون، الذي أعلنه الملك إخناتون إلهًا واحدًا، بعد أن رفض باقي الآلهة المصرية وأنكرها، كما جاء في مخطوطات تل العمارنة.

"أنتَ الإلهُ الأحد الذي وُجِدَ منذ الأزل

أنتَ آية الحياةِ وموهبُ الحياة ولا حياة إلا بك.

أيُّهَا المشرقُ البهيُّ القريبُ البعيد

تعاليتَ فامتدَّ نورُكَ ليضيىءَ الكونَ كلَهُ

أنتَ تدركُ آخر الأرض رُغمَ ارتفاعِكَ منها

لا تكادُ تقذفُ بأشِعَّتِكَ حتى يتمزَّقَ رداءُ الليل

فإذا الأرض تُهَلّلُ وإذا الناسُ أيقاظ".

نشيد إخناتون – مخطوطات تل العمارنة

ولعل أشهر مزامير داوود تلك القطعة الشعرية البديعة التي تستخدم بكثرة في الشعائر الدينية لأصحاب الكتاب المقدس، ويحفظها العديد منهم عن ظهر قلب، وهي قطعة فنية أدبية بالغة العذوبة، عميقة الخيال، قوية التأثير، تعلن هيمنة الرب على الإنسان وخضوع الإنسان الكامل لتلك الهيمنة، ما يكفل له حق الرعاية والحماية وتنزيل البركات.

" الرَّبُّ رَاعِيَّ فَلاَ يُعْوِزُنِي شَيْءٌ.

فِي مَرَاعٍ خُضْرٍ يُرْبِضُنِي. إلى مِيَاهِ الرَّاحَةِ يُورِدُنِي.

يَرُدُّ نَفْسِي.

يَهْدِينِي إلى سُبُلِ الْبِرِّ مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ.

أيضا إذا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي.

عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي.

تُرَتِّبُ قُدَّامِي مَائِدَةً تُجَاهَ مُضَايِقِيَّ. مَسَحْتَ بِالدُّهْنِ رَأْسِي.

كَأْسِي رَيَّا.

إِنَّمَا خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ يَتْبَعَانِنِي كُلَّ أيام حَيَاتِي، وَأَسْكُنُ فِي بَيْتِ الرَّبِّ إلى مَدَى الأيام. "

سفر المزامير – العهد القديم

وفى مزمور آخر نجد مدخلا لفهم الصراع بين الرب والشيطان، وبين شعب إسرائيل وأعدائهم ليصبح الشيطان، أو العدو، هو الطرف الثاني من معادلة الحياة التي لا تكتمل بغير وجوده.

"يَا رَبُّ إِلهِي، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ.

خَلِّصْنِي مِنْ كُلِّ الَّذِينَ يَطْرُدُونَنِي وَنَجِّنِي، لِئَلاَّ يَفْتَرِسَ كَأَسَدٍ نَفْسِي هَاشِمًا إِيَّاهَا وَلاَ مُنْقِذَ.

يَا رَبُّ إِلهِي، إن كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ هذَا.

إن وُجِدَ ظُلْمٌ فِي يَدَيَّ. إن كَافَأْتُ مُسَالِمِي شَرًّا، وَسَلَبْتُ مُضَايِقِي بِلاَ سَبَبٍ، فَلْيُطَارِدْ عَدُوٌّ نَفْسِي وَلْيُدْرِكْهَا، وَلْيَدُسْ إلى الأرض حَيَاتِي، وَلْيَحُطَّ إلى التُّرَابِ مَجْدِي. سِلاَهْ.

قُمْ يَا رَبُّ بِغَضَبِكَ. ارتفِعْ عَلَى سَخَطِ مُضَايِقِيَّ وَانْتَبِهْ لِي.

بِالْحَقِّ أوْصَيْتَ.

وَمَجْمَعُ الْقَبَائِلِ يُحِيطُ بِكَ، فَعُدْ فَوْقَهَا إلى الْعُلَى.

الرَّبُّ يَدِينُ الشُّعُوبَ. اقْضِ لِي يَا رَبُّ كَحَقِّي وَمِثْلَ كَمَالِي الَّذِي فِيَّ.

لِيَنْتَهِ شَرُّ الأَشْرَارِ وَثَبِّتِ الصِّدِّيقَ. فإن فَاحِصَ الْقُلُوبِ وَالْكُلَى اللهُ الْبَارُّ.

تُرْسِي عِنْدَ اللهِ مُخَلِّصِ مُسْتَقِيمِي الْقُلُوبِ.

اَللهُ قَاضٍ عَادِلٌ، وَإِلهٌ يَسْخَطُ فِي كُلِّ يَوْمٍ.

إِنْ لَمْ يَرْجعْ يُحَدِّدْ سَيْفَهُ.

مَدَّ قَوْسَهُ وَهَيَّأَهَا، وَسَدَّدَ نَحوَهُ آلةَ الْمَوْتِ.

يَجْعَلُ سِهَامَهُ مُلْتَهِبَةً.

هُوَذَا يَمْخَضُ بِالإِثْمِ.

حَمَلَ تَعَبًا وَوَلَدَ كَذِبًا.

كَرَا جُبًّا. حَفَرَهُ، فَسَقَطَ فِي الْهُوَّةِ الَّتِي صَنَعَ.

يَرْجعُ تَعَبُهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَعَلَى هَامَتِهِ يَهْبِطُ ظُلْمُهُ.

أحمد الرَّبَّ حَسَبَ بِرِّهِ، وَأُرَنِّمُ لاسْمِ الرَّبِّ الْعَلِيِّ."

سفر المزامير – العهد القديم

وكذلك نجد في مزمور آخر ما يدعم فكرة أن الرب يتخلى عن شعبة، ويدفعه للتهلكة إن تخلى عن ميثاقه معه، وهي رؤية تدعم فكرة أن العقيدة الدينية تفسر هزائمها وتبررها من خلال التقصير في ذات حامليها، وارتكابهم المعاصي.

" يَا رَبُّ، لِمَاذَا تَقِفُ بَعِيدًا؟ لِمَاذَا تَخْتَفِي فِي أَزْمِنَةِ الضِّيقِ؟

فِي كِبْرِيَاءِ الشِّرِّيرِ يَحْتَرِقُ الْمِسْكِينُ. يُؤْخَذُونَ بِالْمُؤَامَرَةِ الَّتِي فَكَّرُوا بِهَا.

لأن الشِّرِّيرَ يَفْتَخِرُ بِشَهَوَاتِ نَفْسِهِ، وَالْخَاطِفُ يُجَدِّفُ. يُهِينُ الرَّبَّ.

الشِّرِّيرُ حَسَبَ تَشَامُخِ أَنْفِهِ يَقُولُ: «لاَ يُطَالِبُ». كُلُّ أفكارهِ أنه لاَ إِلهَ.

تَثْبُتُ سُبُلُهُ فِي كُلِّ حِينٍ. عَالِيَةٌ أَحْكَامُكَ فَوْقَهُ. كُلُّ أَعْدَائِهِ يَنْفُثُ فِيهِمْ.

قَالَ فِي قَلْبِهِ: لاَ أَتَزَعْزَعُ. مِنْ دَوْرٍ إلى دَوْرٍ بِلاَ سُوءٍ.

فَمُهُ مَمْلُوءٌ لَعْنَةً وَغِشًّا وَظُلْمًا. تَحْتَ لِسَانِهِ مَشَقَّةٌ وَإِثْمٌ.

يَجْلِسُ فِي مَكْمَنِ الدِّيَارِ، فِي الْمُخْتَفَيَاتِ يَقْتُلُ الْبَرِيَّ. عَيْنَاهُ تُرَاقِبَانِ الْمِسْكِينَ.

يَكْمُنُ فِي الْمُخْتَفَى كَأَسَدٍ فِي عِرِّيسِهِ. يَكْمُنُ لِيَخْطَفَ الْمِسْكِينَ. يَخْطَفُ الْمِسْكِينَ بِجَذْبِهِ فِي شَبَكَتِهِ،

فَتَنْسَحِقُ وَتَنْحَنِي وَتَسْقُطُ الْمَسَاكِينُ بِبَرَاثِنِهِ.

قَالَ فِي قَلْبِهِ: إن اللهَ قَدْ نَسِيَ. حَجَبَ وَجْهَهُ. لاَ يَرَى إلى الأَبَدِ.

قُمْ يَا رَبُّ. يَا اَللهُ ارْفَعْ يَدَكَ. لاَ تَنْسَ الْمَسَاكِينَ.

لِمَاذَا أَهَانَ الشِّرِّيرُ اللهَ؟ لِمَاذَا قَالَ فِي قَلْبِهِ: لاَ تُطَالِبُ؟

قَدْ رَأَيْتَ. لأَنَّكَ تُبْصِرُ الْمَشَقَّةَ وَالْغَمَّ لِتُجَازِيَ بِيَدِكَ. إِلَيْكَ يُسَلِّمُ الْمِسْكِينُ أَمْرَهُ. أَنْتَ صِرْتَ مُعِينَ الْيَتِيمِ.

اِحْطِمْ ذِرَاعَ الْفَاجِرِ. وَالشِّرِّيرُ تَطْلُبُ شَرَّهُ وَلاَ تَجِدُهُ.

الرَّبُّ مَلِكٌ إلى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ. بَادَتِ الأمم مِنْ أَرْضِهِ.

تَأَوُّهَ الْوُدَعَاءِ قَدْ سَمِعْتَ يَا رَبُّ. تُثَبِّتُ قُلُوبَهُمْ. تُمِيلُ أُذُنَكَ

لِحَقِّ الْيَتِيمِ وَالْمُنْسَحِقِ، لِكَيْ لاَ يَعُودَ أيضا يَرْعَبُهُمْ إِنْسَانٌ مِنَ الأرض".

سفر المزامير – العهد القديم

ولا تكتمل قصة داوود ولا تنتهي فصول روايته الخلابة إلا بملحمة عاطفية كبرى، واختبار إيماني مهيب يليق بذلك البناء الدرامي المحكم الذي تفرع في أسفار صموئيل والمزامير، وبقي خالدا وشاهدا على عصر الملوك، فديفيد النبي المحارب المحب يشاهد امرأة تستحم على سطح منزلها من شباك قصره العالي، ويطلب أن يؤتى بها، ويقيم معها علاقة سرية لأنها متزوجة، ولكنه بعد أن تثمر العلاقة بحمل في أحشائها يقرر أن يتخلص من الزوج بقتله، ليتزوجها هو.

وإذا بالخطأ الذي اقترفه سرًا يطارده في العلن، فيرسل الرب ملكًا يلومه على فعلته ويؤنبه، فيعترف بالخطأ ويقرر الرب عقابه.

وتدور حوارية بديعة بين ناثان النبي المرسل وداود، حول فلسفة الثواب والعقاب، وحوارية أخرى داخلية بين داوود ونفسه، لا تقل عمقًا وتأثيرا، حول جدوى العبادة في حالة إن تنزل عليه العقاب بالفعل.

"فَأَرْسَلَ الرَّبُّ نَاثَانَ إلى دَاوُدَ. فَجَاءَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: «كَانَ رَجُلاَنِ فِي مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ، وَاحِدٌ مِنْهُمَا غَنِيٌّ وَالآخَرُ فَقِيرٌ. وَكَانَ لِلْغَنِيِّ غَنَمٌ وَبَقَرٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا. وَأَمَّا الْفَقِيرُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ إِلاَّ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ صَغِيرَةٌ قَدِ اقتناهَا وَرَبَّاهَا وَكَبِرَتْ مَعَهُ

وَمَعَ بَنِيهِ جَمِيعًا. تَأْكُلُ مِنْ لُقْمَتِهِ وَتَشْرَبُ مِنْ كَأْسِهِ وَتَنَامُ فِي حِضْنِهِ، وَكَانَتْ لَهُ كَابْنَةٍ. فَجَاءَ ضَيْفٌ إلى الرَّجُلِ الْغَنِيِّ، فَعَفَا أن يَأْخُذَ مِنْ غَنَمِهِ وَمِنْ بَقَرِهِ لِيُهَيِّئَ لِلضَّيْفِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ نَعْجَةَ الرَّجُلِ الْفَقِيرِ وَهَيَّأَ لِلرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ.

فَحَمِيَ غَضَبُ دَاوُدَ عَلَى الرَّجُلِ جِدًّا، وَقَالَ لِنَاثَانَ: حَيٌّ هُوَ الرَّبُّ، أنه يُقْتَلُ الرَّجُلُ الْفَاعِلُ ذلِكَ، وَيَرُدُّ النَّعْجَةَ أربعةَ أَضْعَافٍ لأنه فَعَلَ هذَا الأمر وَلأَنَّهُ لَمْ يُشْفِقْ. فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: أَنْتَ هُوَ الرَّجُلُ! هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَنَا مَسَحْتُكَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ وَأَنْقَذْتُكَ مِنْ يَدِ شَاوُلَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ سَيِّدِكَ وَنِسَاءَ سَيِّدِكَ فِي حِضْنِكَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا. وأن كَانَ ذلِكَ قَلِيلاً، كُنْتُ أَزِيدُ لَكَ كَذَا وَكَذَا. لِمَاذَا احْتَقَرْتَ كَلاَمَ الرَّبِّ لِتَعْمَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيْهِ؟ قَدْ قَتَلْتَ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ بِالسَّيْفِ، وَأَخَذْتَ امْرَأَتَهُ لَكَ امْرَأَةً، وَإِيَّاهُ قَتَلْتَ بِسَيْفِ بَنِي عَمُّونَ. وَالآنَ لاَ يُفَارِقُ السَّيْفُ بَيْتَكَ إلى الأَبَدِ، لأَنَّكَ احْتَقَرْتَنِي وَأَخَذْتَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ لِتَكُونَ لَكَ امْرَأَةً. هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجعُ مَعَ نِسَائِكَ فِي عَيْنِ هذِهِ الشَّمْسِ. لأَنَّكَ أَنْتَ فَعَلْتَ بِالسِّرِّ وَأَنَا أَفْعَلُ هذَا الأمر قُدَّامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ وَقُدَّامَ الشَّمْسِ. فَقَالَ دَاوُدُ لِنَاثَانَ: قَدْ أَخْطَأْتُ إلى الرَّبِّ. فَقَالَ نَاثَانُ لِدَاوُدَ: الرَّبُّ أيضا قَدْ نَقَلَ عَنْكَ خَطِيَّتَكَ. لاَ تَمُوتُ. غَيْرَ أنه مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ بِهذَا الأمر أَعْدَاءَ الرَّبِّ يَشْمَتُونَ، فَالابْنُ الْمَوْلُودُ لَكَ يَمُوتُ. وَذَهَبَ نَاثَانُ إلى بَيْتِهِ. فَسَأَلَ دَاوُدُ اللهَ مِنْ أَجْلِ الصَّبِيِّ، وَصَامَ دَاوُدُ صَوْمًا، وَدَخَلَ وَبَاتَ مُضْطَجِعًا عَلَى الأرض. فَقَامَ شُيُوخُ بَيْتِهِ عَلَيْهِ لِيُقِيمُوهُ عَنِ الأرض فَلَمْ يَشَأْ، وَلَمْ يَأْكُلْ مَعَهُمْ خُبْزًا. وَكَانَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ أن الْوَلَدَ مَاتَ، فَخَافَ عَبِيدُ دَاوُدَ أن يُخْبِرُوهُ بأن الْوَلَدَ قَدْ مَاتَ لأَنَّهُمْ قَالُوا: هُوَذَا لَمَّا كَانَ الْوَلَدُ حَيًّا كَلَّمْنَاهُ فَلَمْ يَسْمَعْ لِصَوْتِنَا. فَكَيْفَ نَقُولُ لَهُ: قَدْ مَاتَ الْوَلَدُ؟ يَعْمَلُ أَشَرَّ!. وَرَأَى دَاوُدُ عَبِيدَهُ يَتَنَاجَوْنَ، فَفَطِنَ دَاوُدُ أن الْوَلَدَ قَدْ مَاتَ. فَقَالَ دَاوُدُ لِعَبِيدِهِ: هَلْ مَاتَ الْوَلَدُ؟ فَقَالُوا: مَاتَ. فَقَامَ دَاوُدُ عَنِ الأرض وَاغْتَسَلَ وَادَّهَنَ وَبَدَّلَ ثِيَابَهُ وَدَخَلَ بَيْتَ الرَّبِّ وَسَجَدَ، ثُمَّ جَاءَ إلى بَيْتِهِ وَطَلَبَ فَوَضَعُوا لَهُ خُبْزًا فَأَكَلَ. فَقَالَ لَهُ عَبِيدُهُ: مَا هذَا الأمر الَّذِي فَعَلْتَ؟ لَمَّا كَانَ الْوَلَدُ حَيًّا صُمْتَ وَبَكَيْتَ، وَلَمَّا مَاتَ الْوَلَدُ قُمْتَ وَأَكَلْتَ خُبْزًا. فَقَالَ: لَمَّا كَانَ الْوَلَدُ حَيًّا صُمْتُ وَبَكَيْتُ لأَنِّي قُلْتُ: مَنْ يَعْلَمُ؟ رُبَّمَا يَرْحَمُنِي الرَّبُّ وَيَحْيَا الْوَلَدُ. وَالآنَ قَدْ مَاتَ، فَلِمَاذَا أَصُومُ؟ هَلْ أَقْدِرُ أن أَرُدَّهُ بَعْدُ؟ أَنَا ذَاهِبٌ إِلَيْهِ وَأَمَّا هُوَ فَلاَ يَرْجعُ إِلَيَّ".

سفر صموئيل الثاني – العهد القديم

وهي إشارة رمزية قوية، لأن كتبة التوراة قد حرصوا على أن تكون رسالتهم بالغة الصلة بقوة الدين الذي أصبح في تلك المرحلة أقوى من الملوك، ما يعني أن الرسالة التي حرص على نقلها كتبة التوراة هي أن القانون البشري

يتلاشى أمام قانون الإله، وأن حكم الرب نافذ على الجميع مهما اختلفت مكانتهم، أو درجاتهم وعلوهم الديني أو الاجتماعي.

والجدير بالذكر أنه تم العثور على نقوش حجرية تحتوي على اسم داوود، أو تحديدا بيت داوود، ما يؤكد تاريخيًا وجود ملك بهذا الاسم، على عكس الملك سليمان الذي تلاه، حسب العهد القديم، والذي ينسب له بناء المعبد والهيكل، حيث لم توجد أيَّة لوحة أو نقش أو مخطوط يحمل اسمه أو حتى يعتقد أنه من بقايا معبده.

وقد وصف العهد القديم عهد سليمان بالبذخ، وعرف عنه حب الخيل، وتعدد الزوجات، وكثرة النزوات، واتباع الشهوات، وفرض الضرائب الباهظة، كما أنه قتل إخوته وقادة الجيش في بداية حكمِهِ حتى لا ينازعه أحد في الملك، وخصوصًا أنه كان أول الملوك الذين يرثون الحكم، مخالفًا تعليمات الرب.

وتجدر هنا الإشارة إلى أن المعتقد اليهودي يرى أن الرب هو الملك الوحيد المباشر لبني إسرائيل، وأنه لا ملك غيره، ولا يصح أن يحكمهم بشري برتبة ملكية، ولذلك كانوا يكرهون ملوكهم، ويعزون إليهم سبب كل خراب حل بهم على مر التاريخ.

وبعد فترة من حكم سليمان، ونتيجة لكثرة الضرائب وصراع السلطة بين الأسباط "القبائل الإسرائيلية"، فقد تم تقسيم مملكة إسرائيل الموحدة لمملكتين: المملكة الشمالية، والتي ضمت عشرة أسباط "قبائل"، والمملكة الجنوبية، والتي ضمت سبطين فقط "يهوذا وشمعون".

وتروي التوراة أن المملكة الشمالية قد حكمتها مجموعة متتالية من الملوك الأشرار الذين لم يطيعوا الرب، ولم يلتزموا بأوامره، وأن المملكة الجنوبية كانت أكثر تمسكًا بالدين وتقربا للإله.

وكانت عبادة الأصنام والآلهة القديمة منتشرة في المملكتين، وخصوصا الإله بعل، والإلهةُ عشتار، فكانت تماثيلهما منتشرة في المنازل والقصور والأسواق، وتقام لهما المذابح وتقدم التضحيات، كما كانت المملكتين الشمالية والجنوبية كثيرًا ما تنخرطان في صراعات دامية عنيفة فيما بينهما.

وفى عام 720 ق.م غزا السوريون المملكة الشمالية ودمروها، وقتلوا العديد من أهلها، ونفي الباقون، واقتيدوا كأسرى، وطمست بعد هذا هويتهم للأبد، ولم يظهر لهم أثر على مر التاريخ، وهو ما يتسق مع مبدأ الثواب والعقاب الذي رسخته التوراة.

وبقيت مملكة الجنوب حيث ذاب سبط شمعون - الأقل عددا - في سبط يهوذا، وتم تغيير اسم الشعب للمرة الثالثة، نسبة للملك يهوذا ومملكته،

ليطلق على بني إسرائيل للمرة الأولى في التاريخ "اليهود"، وهو الاسم الذي استمر مع ذلك الشعب منذ ذلك التاريخ، ليصفهم عرقيًا ودينيًا وثقافيًا، ويميزهم عن غيرهم من الشعوب.

وفي عام 640 ق.م، وخلال حكم الملك يوشيا، حدث أن حاول أن يثني اليهود عن عبادة عشتار وبعل، فطارد كهنة تلك الآلهة وقتلهم، وهدم مذابحهم على قمم الجبال، بل وأحرق جثثهم وحطم بقاياهم، وأصدر عدة قرارات تحرم عبادة عشتار، واتخذ قرارًا جديدًا بمنع عبادة "يهوه" خارج المعبد، حتى تقوى صلات اليهود القرويين بالقدس/أورشليم، ويُكثروا من التردد عليها وزيارتها، وهو ما من شأنه إعلاء النزعة القومية والمكانية للشعب.

وساعده على هذا النبي إرميا، الذي كان شاعرًا أيضا كداوود، وله من المقطوعات الأدبية التي سجلت باسمه بعنوان مراثي إرميا، التي كانت تتميز بطابع يشوبه الحزن والشجن، ولذلك سمي بالنبي الباكي.

وفي تلك الفترة، ومن خلال ظروف غامضة، أعلن يوشيا أن كهنته قد عثروا على كتابات ومخطوطات منسوبة لموسى، وسموها "سفر التثنية"، وتم ضمها للعهد القديم، ليبدو أن هناك تغييرًا اجتماعيًّا شاملاً يجري بداخل المجتمع، بهدف تقويته وتدعيمه خوفًا من مصير القبائل الشمالية، ولكن تلك الجهود قد باءت بالفشل؛ فعندما استشعر يوشيا قوة إيمانه واستعداد شعبه بدأ في التمرد وأعد العدة للقتال خارج مدينته مسلحًا بالعزم ومتبعًا التعليمات التوراتية، ولكنه قُتل في أول معاركه مع الآشوريين، وظلت القدس خاضعة لهم، ثم خضعت بعد هذا لحكم البابليين.

ومجددًا ثار اليهود على حكم نبوخذ نصر، الملك الشهير، فقام بمهاجمتهم عام 589 ق.م لإخماد تلك الثورة، ودمر مملكة يهوذا، وقتل كل أبناء الملك أمام عينيه، كإعلان لنهاية تلك السلالة والمملكة، واقتاد شعب الرب لمسافة 600 ميل في الصحراء، أسرى وعبيدًا لأرض بابل، فيما عرف بالسبي البابلي، ووجد اليهود أنفسهم في مواجهة حاسمة مع حالة التشتت والضياع التي دائما ما طاردتهم.

تلك المواجهة التي لو قدر لهم أن يخسروها فلن يَردَ ذكرهم في التاريخ مرة أخرى على الإطلاق. ولم يكن أمامهم هذه المرة إلا سلاحهم الأشد خطورة والأقدم عمرا، فاستعانوا بكتّابهم ومؤرخيهم، وأمضوا سبعين عامًا، هي فترة الأسر والعبودية، بالعمل الوحيد الذي كان من شأنه حفظ الشعب وبقاء السلالة، لقد جمعوا مصادر العهد القديم في كتاب واحد، وأعادوا كتابتها وتنقيحها، بل ودعموها برؤى وتفسيرات وحكايات جديدة لتبرير ما حدث لهم من ذل وهوان، أرجعوه إلى ضعف أنفسهم وتقصيرهم مع الرب، ووضعوا

نصب أعينهم هدفًا واحدًا، وهو العودة للأرض المقدسة. فمكنتهم تلك المخطوطات من الحفاظ على اللغة والهوية والتراث، وأبقتهم على قيد الحياة.

ولا شك أن الثقافة اليهودية قد استفادت كثيرا من الحضارة البابلية، وطوعتها كثيرًا في خدمة ثقافتهم وترصيع تراثهم، كما استفادت من قبل من الحضارة الفرعونية.

ورغم عودة اليهود من السبي، وبناء الهيكل مرة أخرى 538 ق.م، فإنهم كانوا خاضعين فعليًا لحكام أجانب من الفرس ثم اليونان ثم الرومان، وتخلل تلك الفترات العديد من الثورات والأحداث الدموية، حتى انتهى الأمر بقيام إمبراطور الرومان هدريان بتدمير "أورشليم/ القدس" وأعاد بناءَها باسم "إيليا كابتولينا"، ولم يسمح لأي يهودي بأن يدخلها أو يعيش فيها على الإطلاق، ليبدأ فصل جديد من الشتات اليهودي في أصقاع العالم المختلفة، بعيدًا عن أرض الرب ومدينته المباركة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



مدينة الرب المخضبة بالدماء

القدس، أورشليم، مدينة الرب، أو مدينة السلام كما يحلو للبعض أن يطلق عليها، المدينة التي يرجع تاريخ تأسيسها لما يزيد عن 2800 عام ق.م، لتعد واحدة من أقدم المدن في تاريخ البشرية على الإطلاق، وواحدة من أقدم المدن التاريخية التي ما زالت نابضة بالحياة ومأهولة بالسكان منذ فجر التاريخ.

تلك المدينة التي كانت مرشحة بقوة للضياع والتدمير في كل العصور، والتي تعاقب عليها الغزاة والمحتلون، فهوجمت مئات المرات، وحوصرت عشرات المرات، وتم احتلالها، بل لقد تم تحطيمها بالكامل، وسويت بالأرض تماما في أكثر من واقعة تاريخية مثبتة.

ولكن، ورغم كل تلك الدماء المراقة والنفوس المعذبة والأرواح المزهقة، ورغم آثارها ومبانيها التي تحطمت المرة تلو الأخرى، ومعالمها التي طمست وأعيد تشكيلها المرة تلو الأخرى، ورغم كل تلك الأحداث المأساوية، فما زالت القدس قابعة في مكانها شاهقة محصنة عصية على الفهم، مستحيلة التدمير، وشاهدة على ملايين القتلى والضحايا الذين دفعوا حياتهم ثمنًا لبقائها، ولم يبقَ لهم ذكرٌ في صفحات التاريخ.

ينسب بناء مدينة القدس إلى اليبوسيين وهم في الأصل من القبائل العربية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية في الفترة التي سميت بالهجرات التاريخية الكبرى، وذلك هربا من الصحراء العربية القاحلة ونقص المياه والموارد، وقد اختاروا تلك البقعة واستقروا فيها منذ عصور مبكرة، ثم بنوا عليها مدينتهم وسموها "يبوس".

وتميز موقع يبوس بارتفاعه عن باقي المناطق المحيطة، بسبب ووقوعه فوق هضبة ضخمة، ما سهّل تأمينها والدفاع عنها، فبنى سكانها حول المدينة الأسوار، كما بنوا حصنًا في شرق المدينة، سمي بالحصن الشرقي أو حصن يبوس، وهو أقدم بناء عرف في تلك المنطقة.

وامتاز موقع يبوس أيضا بأنه متوسط بين ثلاثة بحار رئيسية، كانت لها أهمية جغرافية عظيمة بين دول العالم القديم، وهي البحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر الميت.

ويضاف إلى مميزاتها العديدة خصوبة التربة واعتدال المناخ في أغلب أوقات العام، ما جعلها صالحة للزراعة جيدة المحاصيل، وإن كان شتاؤها ثلجيًّا في بعض الأحيان.

كما تتوافر في يبوس العديد من عيون الماء والآبار، ما يكفي ويفيض عن حاجة السكان في فترة ساد فيها القحط والعطش، فأصبحت بذلك مستقرا لتلك العشائر من اليبوسيين، ومطمعًا لمن حولهم من القبائل والجماعات الأخرى.

تطورت المدينة في عهد الكنعانيين الذين ينسبهم البعض للعرب الرُّحَّل من شبة الجزيرة العربية من أصول سامية، والتي من فروعهم قبيلة يبوس، أول من سكن تلك المدينة وأسسها.

وينسبهم الآخرون لأصول إفريقية، وتحديدا للمغرب العربي، ويربطهم بالفينيقيين الذين برعوا في بناء السفن وركوب البحر، وتركوا آثارًا متنوعة على مختلف شواطئ البحر المتوسط "مصر وليبيا وإيطاليا وسردينيا واليونان"، وصولا لمضيق جبل طارق، الذي كان يعرف بأعمدة هرقل، وكان يعتقد أنه نهاية العالم.

حتى إن بعض الدراسات أرجعت أصل تسمية مدينة وميناء مرسيليا، في فرنسا، للإله الكنعاني-الفينيقي إيل، وقسموا اسمها إلى مقطعين "مرسى-إيل" أي شاطئ الإله إيل، وخصوصا أنه قد تم العثور على تماثيل لذلك الإله الكنعاني "إيل" في إسبانيا، ترجع لأبعد من 1200 سنة ق.م، ما اعتبروه دلالة قوية على صحة تلك النظرية.

ويعود للكنعانيين وعهدهم ازدهار المدينة والقرى المحيطة بها، فقد زرعوا القمح والشعير والزيتون والعنب، واستأنسوا الحيوانات المختلفة، وصنعوا النبيذ والأواني الفخارية، كما صنعوا الأسلحة من البرونز، ثم من الحديد في عصور لاحقة، واهتموا بأسوار مدينتهم وتحصينها، وبنوا القصور والمنازل ومعبدًا ضخمًا لعبادة آلهتهم، خصوصا الإله "إيل" الذي اعتُبر معبدُهُ أول المعابد الدينية في المدينة.

وتغير اسم المدينة في العصر الكنعاني ليصبح "أُور سالم" وذلك نسبة للإله سالم "إله الخير والعطاء"، والذي كان يطلق عليه باللغة المصرية القديمة "شالم" وظهر اسمه في مخطوطات ترجع لعهد الأسرة الثانية عشرة، فيما يقرب من 2000 ق.م، وأطلق المصريون على المدينة في مخطوطاتهم "أورشالم".

وكانت تسميةُ المدن بأسماء منسوبة للآلهة شائعة جدًا عند الكنعانيين، فنجد أن "أريحا" سميت بهذا الاسم نسبة للإله ريحو أو يرح، إله القمر، ومدينة حران سميت نسبة للإله حرون إله الحرب. ويلاحظ أن أسماء معظم المدن في تلك المنطقة ما زالت تحتفظ حتى الآن بأصولها الكنعانية، كمدينة يافا

التي يعني اسمها بالكنعانية المرأة الجميلة، ومدينة عكا التي يعنى اسمها بالكنعانية مدينة الرمال الحارقة.

وكان الكنعانيون أصحاب حضارة لافتة وقوة نامية في تلك الفترة الزمنية المبكرة من التاريخ، إلا أنهم كانوا في حالة من التفكك السياسي والاجتماعي، إذ إنهم لم يدينوا بالولاء لملك واحد، ولم يخضعوا لحكم مركزي قوي ينظم شؤونهم ويدافع عنهم، فكانت كل مدينة مستقلة ومنفصلة بذاتها تخضع لأمير مختلف، ما حال دون أن تقوم في أرض كنعان دولة قوية، أو يتكون جيش موحد يستطيع أن يحافظ على حدود دولته، ويحمي تراثها.

وكانت هذه هي البذرة الأولى في فصول مأساة تلك المنطقة من العالم، التي لم تعرف الأمان ولم تنعم بالاستقرار والسلام منذ نشأتها الأُولى، فكانت خيراتها الوفيرة وأرضها الخصبة وموقعها الجغرافي المتميز سببًا في شقاء أبنائها، وإراقة دمائهم وتعرضهم الدائم للغزو والخراب، وخضوعهم المتكرر لغيرهم من الأمم.

فبجانب الخلافات الداخلية والتناحر بين الأمراء الكنعانيين وبعضهم البعض، كانت هنالك قوة خارجية عظيمة تتربص بأرض كنعان وتعتبرها إقليمًا تابعًا لها، وهي الدولة المصرية القديمة، إذ ثبت تاريخيًّا أن المصريين القدماء قد اعتبروا فلسطين وأرض كنعان منذ القرن السادس ق.م تابعة لهم، فغزوها وقهروا شعوبها وأخضعوا حكامها، وكان ذلك بداية التدخل الخارجي في الشأن الكنعاني.

لكن ذلك الغزو لم يكن عملية منظمة وواضحة المعالم قام بها أحد الفراعنة المصريين ضد أُمراء كنعان، وانتصر عليهم وغزا أرضهم دفعة واحدة، بل كان غزوًا تدريجيًا على فترات متلاحقة، فكان الفراعنة حكام مصر يُسيّرون الجيوش لأرض كنعان لإخضاع مدينة تلو الأخرى، وبتوالي الفراعين توالى سقوط المدن الكنعانية، حتى صارت كلها واقعة تحت سيطرة المصريين.

وكانت العلاقة بين أمراء كنعان وبين ملوك مصر علاقة تبعية، وليست علاقة احتلال كامل، فقد كان الفراعنةُ يتركون لأمراء كنعان إدارة شؤون بلادهم بمبدأ الحكم الذاتي، ليحكموا أنفسهم ويسيّروا أمور شعبهم، لكنهم في نفس الوقت يدينون بالولاء والطاعة ويخضعون بالتبعية لملوك مصر، فيدفعون لهم الجزية وينفذون أوامرهم وتوجهاتهم. وفي المقابل كان الفراعنة يكفون عنهم بطشهم، ويوفرون لهم الحماية من أي خطر أو عدوان خارجي.

وقد عثر على لوح أثري يعود إلى 1220 ق.م ينسب للملك منفتاح، وقد كتب عليه بالهيروغليفية:

"لقد غلبت الملوك وقالوا سلامًا فانتهت كنعان وحل بها كل الشرور "

ويذكر التاريخ العديد من الملوك المصريين الذين بسطوا حكمهم على أرض كنعان، مثل إخناتون، وتوت عنخ آمون، وسيتي الأول، ورمسيس، وغيرهم. ورغم تلك السيطرة المصرية الواضحة على كنعان وأمرائها، فقد كانت أحلام الحرية والاستقلال تدور دائمًا في مخيلتهم، ما دفع الكنعانيين إلى الثورة على حكم المصريين مرات عديدة، ولكنهم غالبا ما فشلوا، ولعل أبرز تلك المحاولات ما قام به أحد الأمراء الكنعانيين، عندما حاول أن يجمع المدن والقبائل الكنعانية تحت قيادته بهدف الثورة ضد المصريين، وذلك بعد وفاة الملكة حتشبسوت، مستغلا حالة الفوضى والفراغ السياسي التي عانت منه الدولة المصرية بغياب الملكة المخضرمة، وشجعه على ذلك ظنه أن خليفتها "تحتمس الثالث" شابٌ يافعٌ قليل الخبرة والدراية بالحكم وبالشؤون الحربية، لكن ظنونه لم تكن في محلها، فقد هُزم الكنعانيون هزيمةً قاسية بقيادة الفرعون الشاب في موقعة مجدو عام 1468 ق.م.

وكعادة الفراعنة المنتصرين، في الحرص على توثيق انتصارهم بالنقوش والصور، فقد احتوت جدران معبد الكرنك على توثيق دقيق لأحداث المعركة، ولاجتماعات تحتمس الثالث مع قادته العسكريين، مصورة خلاف القادة ومعارضتهم لخطة القائد الشاب الجريئة، التي كانت تقتضي أن يمر الجيش المصري في ممر جبلي وعر بكامل عدته وعتاده.

ورده قائلا كما ورد في النقوش:

" أنا هو محبوب الإله رع قد مجدني أبي الإله آمون. سأسلك الطريق الضيق فلتتبعوني"

وقد اختار الملك طريقًا جبليًّا وعرًا غيرَ مأهولٍ، وترك الطريق الصحراوي الواسع المعروف؛ هربًا من الكمائن والفخاخ التي نصبها لهم الكنعانيون على أمل استدراجه وهزيمته، وتحرك الجنود المصريون مضطرين للسير مسافة طويلة في ممر جبلي ضيق، ساحبين خيولهم وحاملين عجلاتهم الحربية، طاعة لأوامر الملك، بمشقة وصعوبة بالغة.

نجحت الخطة، ولعب عامل المفاجأة الدور الرئيسي في حسم المعركة لصالح تحتمس الثالث ضد الكنعانيين، الذين وجدوا الجيش المصري يطرق أبوابهم دون سابق إنذار، حاملا لهم رايات الموت وأنواء الهزيمة.

ويمكن أن نتصور مدى ضراوة تلك المعركة، وحجم الخسائر والدماء التي أريقت خلالها، إذا عرفنا أن الجنود المصريين قد قطعوا أيادي ضحاياهم في المعركة، وأحضروها للملك حتى يراها بنفسه ويحصيها، وإذا عرفنا أيضا أنه تم

التمثيل بجثث الكنعانيين وتقطيعها حتى لا ينالوا الراحة والخلود في الحياة الأخرى، حسب المعتقد المصري القديم.

ولكن رغم بشاعة المعركة وضخامة الأحداث التي تلتها، فقد تمتع الملك تحتمس الثالث بقدر عال من الفطنة والذكاء السياسي، جعله حريصًا بعد أن أحكم سيطرته على أرض كنعان وأذاق أهلها مرارة الهزيمة، على أن يمد أواصر الصلة والصداقة مع أُمراء كنعان وأبنائهم، بل ويمنحهم المزايا ويجزل لهم العطاء، حتى إنه استضافهم في مصر بأغراض الزيارة والتعليم، لخلق حالة من التواصل الثقافي والاجتماعي؛ من شأنها تثبيت حكمة وتدعيم سلطته.

وبجانب خطر المصريين القدماء، وتهديدهم المستمر لأرض كنعان، كان هنالك خطر آخر أقل تنظيمًا وأضعف قوة، ولكنه أكثر إزعاجا وأذى، وقد تم رصد هذا الخطر تاريخيًا في مخطوطات تل العمارنة، عن طريق رسالة من أحد حكام "أُورسالم" يدعى "عبدحيا" ترجع لعام 1550 ق.م، كان قد أرسلها لملك مصر أمنحتب الثالث، ليؤكد فيها على خضوعه وولائه له، ويطالبه بحمايته من هجمات "العبيرو"، وقد وصف "العبيرو" في رسالته بأنهم قبائل من البدو الرُّحَّل وقطاع الطريق، قادمة من الشرق، تهاجم مدينته باستمرار وتضمر لها الشر وتسطو على خيراتها. والمرجح أنه يقصد القبائل العبرانية التي كانت تهاجر بكثافة من بلاد ما بين الرافدين لمنطقة الهلال الخصيب.

وكان العبرانيون دائمي الحضور في خلفية مشهد الصراع بين المصريين والكنعانيين، فكانوا يُغيرون بشكل متكرر على أراضي كنعان، ويستولون على خيراتها ويستغلون انشغال الدولة المصرية أو ضعفها، ويسيطرون على أجزاء من أراضي الكنعانيين، وكان الصراع متداول بينهم وبين أمراء كنعان، الذين كانوا في كثير من الأحيان ينجحون في رد هجمات العبرانيين وهزيمتهم، والسيطرة على خطرهم.

وبالتدريج، ومع ضعف القبضة المصرية، أصبح للعبرانيين "بني إسرائيل" السيطرةُ كاملةً على أرض كنعان، وذلك في عهد الملك داوود الذي أسس مملكة إسرائيل الموحدة، واحتل أُورسالم عام 1000 ق. م وسميت "مملكة داوود" أو "بيت داوود" كما أشارت الحفريات التي عُثر عليها راجعةً لتلك الفترة.

وفي عهد الملك داوود تمت تعلية الأسوار وتشييد القصور والحصون، على الطّرز المعمارية المصرية والآشورية، وإن كانت لا تضاهيها في العظمة والمساحة، وصار سكان "أُرو سالم" خليطًا من اليبوسيين والفلسطينيين والكنعانيين، إلى جانب بني إسرائيل، حتى إن إحدى زوجات داوود كانت من

الحيثيين، وهي التي أنجبت له الملك سليمان الذي ورث الحكم عن أبيه داوود، وكان نسبُه هذا السببَ في الثورة عليه في بداية عهده بالحكم، من جانب إخوته وقادة جيشه، ولكنه نجح في قتل معارضيه ونفيهم وتثبيت حكمه.

وكما كان حكمُ المصريين لأرض كنعان عصيبًا مليئًا بالقتلى والدماء، كذلك كانت فترة حكم بني إسرائيل فترة عصيبة، فكثُرَتِ المعاركُ والصراعات، وأُريقَ الكثيرُ من الدماء، سواء من دماء بني إسرائيل الذين اقتتلوا بشدة فيما بينهم، أو من دماء من حولهم من الشعوب التي نالت قسطا وافرا من نصال سيوفهم.

وساعد على عدم استقرار الأوضاع داخل مملكة إسرائيل، أن كان لها نظام طبقي خاص يقسم الشعب لثلاثة طبقات مختلفة، الطبقة الأعلى وهي طبقة الكهنوت، وتضم العلماء والكهنة ورجال الدين، وطبقة الليفي وهم الحراس والجنود المحاربون، وهي الطبقات التي تعيش في رغد وسعة وتحصل على كل الامتيازات، والطبقة الثالثة هي طبقة العامة، وتضم العمال والمزارعين وصغار التجار والخدم وغيرهم من الكادحين، وكانت هذه الطبقة هي التي تعاني من كثرة الضرائب وويلات الحروب، إلى جانب سوء معاملة الطبقات الأخرى.

وكانت مملكة إسرائيل تضم تحت لوائها اثنتي عشرة قبيلة "سِبْطًا" وكان هنالك خلاف شديد بين القبائل، ازداد تدريجيًا حتى انهارت مملكة إسرائيل، ولم تستمر الوحدة بين القبائل، وتم تقسيم مملكة إسرائيل لمملكتين، المملكة الشمالية، والتي سميت "إسرائيل" وضمت عشر قبائلَ، وعاصمتها السامرة، والمملكة الجنوبية، والتي سميت مملكة "يهوذا"، وضمت قبيلتين فقط، وعاصمتها "أُورسالم – أُورشليم".

وقد زاد من قتامة المشهد، ونهر الدماء المتدفق، الحربُ الداخلية بين المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية، التي وصلت مبلغَها بأن استعان ملوك الشمال بملوك سوريا من الآراميين في حربهم ضد الجنوب.

وأصبحت تلك المنطقة ساحة للحرب بين اليهود بعضهم ضد بعض، وبين اليهود وجيرانهم من الفلسطينيين والكنعانيين والآشوريين، إلى جانب الصراع بين الآشوريين وملوك مصر الفرعونية.

ولم يتغير ذلك المشهد المنقسم على نفسه ويتخذ مسارا مختلفا إلا بانتهاء مملكة الشمال اليهودية، وتدميرها على يد الآشوريين في عام 722 ق.م.

وظلت المملكة الجنوبية صامدة حتى عام 586 ق.م، لكنها لم تكن مستقلة بالحكم، بل خضعت للحكم بالوكالة أيضًا، وتناقلها الملوك الآشوريون

والفراعنة حتى صارت من نصيب ملوك بابل، القوة العظمى في ذلك العصر، والتي انتصرت على الدولة الآشورية وورثت ملكها، واستطاعت أن تنتصر على فرعون مصر "نخاو" وتحُدَّ من التوسع المصري في الشرق.. فصار اليهود تابعين لتلك الدولة القوية لسنوات عديدة، حتى ثاروا عليها ثورة كبيرة؛ فما كان من الملك البابلي "نبوخذ نصر" إلا أن قام بقيادة جيشه بنفسه، وزحف على عاصمتهم ودمرها، واقتاد اليهود إلى بابل أسرى وعبيدًا، فيما عرف بالسبي البابلي.

والسبي البابلي هو واحد من الأحداث الأبرز حضورًا في تاريخ شعب إسرائيل، والذي بسببه انتهى وجود دولتهم وانهار كيانهم السياسي، ولم تظهر مملكة إسرائيل في التاريخ القديم بعد هذا إلا بشكل متقطع، ومن خلال أفراد أو مجموعات متناثرة أو فصائل ثائرة، وحل محلها كيانٌ ديني موازٍ حيث حيث تم استبدال الملوك برجال الدين واستبدال الحكام بالكهنه، ليصبح بنو إسرائيل طائفة دينية من الطوائف المختلفة والمتعددة المنتشرة في تلك المناطق.

وكما كانت تلك الحقبة فارقة في تاريخ بني إسرائيل فقد كانت أيضا حاسمة في تاريخ العالم القديم، بل يمكن اعتبارها نهاية مرحلة تاريخية كاملة، وبداية مرحلة جديدة.

فقد بدأت التوازنات الإقليمية في التغير واختلفت موازين القوى واختفت العديد من الممالك والكبرى، وحلت محلها ممالك جديدة وقوى مختلفة، وكان على رأس ذلك التغيير الإمبراطورية الفارسية صاحبة النفوذ الواسع والحكم الممتد، والتي بدأت تترك بصمتها في تاريخ اليهود عندما احتلت بابل عام539 ق.م، وسمح الملك الفارسي قورش الثاني بعودة اليهود إلى أورشليم التي أصبحت تابعة له أيضًا، وذلك لأسباب سياسية واقتصادية، وكانت تلك العودة في عام 526 ق.م وتوافد على المدينة عدد كبير من اليهود الذين شرعوا في إحياء المدينة وإعادة بناء معبدهم، بينما بقي الجزء الأكبر في بابل ولم يرحل، وتدريجيًا انتقل عدد منهم لمناطق أخرى محيطة غير مدينتهم الموعودة.

وامتد العصر الفارسي لما يقرب من ألف سنة، منذ بداية نشأة إمبراطورية الفرس في 550 ق.م وحتى نهايتها عام 651 ميلاديًا، واتسعت حدود دولة الفرس لتشمل آسيا الصغرى وأجزاء من البحر المتوسط ومصر، وشهد تاريخ تلك الإمبراطورية معاركَ داميةً وثوراتٍ داخليةً وانتصارات عظيمة، كما شهد هزائمَ وانكساراتٍ ورايات منكسة، حتى إن مساحتها تقلصت في بعض الأحيان لتقتصر على إيران وأجزاء من العراق والشام.

لكن مدينة الرب "أُورشليم" لم تستمر تحت حكم الفرس للأبد، فقد كان لها مصيرٌ آخر، وكان للإسكندر المقدوني حظه من القتل والدماء في بلاد

الشرق، حيث خرج القائد اليافع بجيش من أهل اليونان ليحارب الفرس ويهزمهم، في معركة عنيفة عام 333 ق.م، ليبدأ في بسط سلطته على آسيا والعالم القديم، وينجو من المعركة ملك الفرس "داريوس" بأعجوبة قبل أن يقتل على يد أتباعه، ثم يدخل الإسكندر غازيًا الشام وأُورشليم دون مقاومة تذكر، ليبدأ فصل جديد من تاريخ المدينة على يد حكام جدد، وبديانة جديدة لم يعرفها الشرق من قبل، وهي الديانة اليونانية وعبادة زيوس.

ثم يتجه الإسكندر إلى مصر مستكملا رحلته، ويجدر هنا ذكر أن الإسكندر كان يفتح باب الالتحاق في حملته العسكرية لأهالي البلاد التي يحتلها، ما جعل العديد من اليهود ينخرطون في جيش الإسكندر، ويشاركون في حملاته العسكرية، وقد استقر كثير منهم في نهاية المطاف في مدينة الإسكندرية، التي بناها الإسكندر نهاية عام 332 ق.م، واستمروا في العيش قرونًا طويلة.

وبعد وفاة الإسكندر 323 ق.م قسمت مملكته بين أتباعِهِ، فأصبحت أُورشليم تابعة للدولة البطلمية الوليدة في مصر وعاصمتها الإسكندرية، وكان لليهود شأن كبير في هذه الدولة، ثم نازعهم في حكم أورشليم بعض القادة الآخرين من ورثة الإسكندر الذين عرفوا باسم "السلوقيين"، وورثوا مُلك الشام حتى استطاع السلوقيون السيطرة على المدينة وضمها لهم بعد هزيمة البطالمة.

واضطهد السلوقيون اليهودَ وحَرَّمُوا ديانتهم وأجبروهم على عبادة الآلهة اليونانية، ووضعوا تماثيلَ زيوس في معابد أورشليم، وذبحوا الخنازير في المعابد اليهودية، وهو حيوان محرم في اليهودية، ما أثار غضب اليهود ودفعهم للثورة فيما عرف بثورة الميكابين، نسبة إلى يهوذا المكابي، ليكون لهم ملك محدود لفترة قصيرة.

ورغم ملك اليهود وسيادتهم على المدينة فإن الصراع في المدينة المقدسة لم يهدأ، واشتد الخلاف بين أحزاب اليهود وطوائفهم الدينية، وخصوصا "الفريسيين"و "الصدقيين" الذين تنافسوا على الحكم في أجواء من المؤامرات والاغتيالات والمشاهد المربكة.

وفى الفترة بين عامي 63 ق.م و636 ميلاديًا، شهدت أُورشليم عدة نقلات نوعية مهمة في تاريخها، لتبدأ في التغيير والتشكل بصبغة جديدة تعيد تشكيل طابعها وجوهرها بشكل كامل إلى الأبد.

بدأت تلك الفترة باجتياح الإمبراطورية الرومانية للعالم القديم، ومن ضمنة أورشليم التي دخلها الإمبراطور بومبي، وأصبحت من ضمن مستعمراته الرومانية المتعددة، وكان حكم الرومان قاسيًا ودمويًّا؛ ففرض الولاة على أهل المدينة عبادة آلهتهم ونكلوا بهم كما دمروا معالم المدينة، وردا على هذه القسوة المفرطة بدأت سلسلة من أعمال العنف والشغب العنيفة في الفترة

بين العام 66 ميلاديًا إلى العام 70 ميلاديًا، سقط فيها العديد من الضحايا، ولكن لم يلبث أن سيطر الرومان على المدينة وأحرقوها بالكامل، ثم تجددت أعمال العنف والشغب مرة أخرى عام 132 ميلاديًا، وتكرر نفس السيناريو السابق مصحوبًا بعنف أكبر، حتى تمكن الرومان من السيطرة على المدينة وتدميرها مرة أخرى، وقاموا بطمس وجود وهوية اليهود تماما، بأن نفوهم خارجها ومنعوا عودتهم إليها، وغيروا اسمها لتصبح إيليا كابتولينا Aelia Capitolina ما كان السبب في هجرة اليهود بشكل جماعي ومكثف لشتى أنحاء العالم، وخصوصًا أوروبا، بعد تلك الواقعة، وسميت تلك المرحلة من تاريخ اليهود بمرحلة الشتات، وكان لها الأثر العظيم في تكوين شخصيتهم المعاصرة ووجودهم الحالي، وظل تاريخ 70 ميلاديا هو أحد النقاط المرجعية الهامة في تاريخ مدينة القدس، وتاريخ اليهود على مر الزمان.

وكانت النقلة النوعية الثانية في تاريخ المدينة بظهور الديانة المسيحية، ودخولها كشريك جديد وعامل أساسي في الفكر والمعتقد الذي يحكم تلك المنطقة ويسيطر عليها، وطرف هام من أطراف صراع الهوية والعقيدة الذي رسم مستقبل القدس وتاريخها، ومستقبل الشرق الأوسط والعالم حتى عصرنا الحاضر.

وقد عانت المسيحية في بداياتها من اضطهاد الرومان، وعانت كذلك من اضطهاد بقايا اليهود الذين ظلوا في مدينة أورشليم، وكانت لهم مكانة دينية خاصة، حيث أنكروها واعتبروها بدعة، وعملوا على إجهاض دعوتها، فواجه المسيحيون الأوائل حملات من التعذيب والتنكيل على يد الجنود الرومان، وقتل وصلب عدد كبير منهم، ولكن رغم كل هذا، فقد نجحت الديانة المسيحية في الانتشار بكل أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وزاد عدد أتباعها ومناصريها، وزادت قوتها حتى أصبحت تدريجيًا هي الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور قسطنطين، بمرسوم ميلان الشهير عام 313 ميلاديا، وحلت محل ديانتها وآلهتها الأقدمين.

وما إن تم الاعتراف رسميًا بالديانة المسيحية، واتُّخِذت ديانة جديدة للإمبراطورية مترامية الأطراف عديدة الرعايا، حتى بدأ الرومان في البحث عن الآثار المسيحية، وبالتحديد في مواقع الأحداث التي رويت في العهد الجديد "الإنجيل"، كالأماكن التي عاش بها المسيح، والأماكن التي تنقل خلالها، وكذلك مكان صلبه ومكان قيامته، واعتبروها مزارات دينية وأماكن مقدسة، حيث بنيت في تلك الفترة أهم وأقدم الكنائس الشرقية "كنيسة القيامة" التي ما زالت قائمةً حتى الآن. ولكن في عام 614 ميلاديا، وبمعاونة اليهود الذين راودهم حلم العودة بعد طرد الرومان لهم، بعثت أطماع الفرس في المدينة

كالعنقاء التي تخرج من بين الرماد، وقام الفرس بشكل خاطف باسترداد المدينة مرة أخرى وتدمير العديد من مقدساتها.

لكن الإمبراطورية الرومانية القوية، التي أصبحت حامي المسيحية ومركز انتشارها، لم ترض عن ضياع مقدساتها بتلك السهولة، فسرعان ما استعاد الإمبراطور الروماني "هرقل" مدينة أورشليم عام 629 ميلاديا، ودخلها حاملا الصليب مرة أخرى.

وبعد مرور نحو خمسمئة عام من طرد اليهود من أورشليم كانت النقلة الثالثة بميلاد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، نبي المسلمين، في شبة الجزيرة العربية، عام 571 ميلاديا، وبزوغ نجم الإسلام كديانة جديدة ذات رؤية وتعاليم جديدة، مستمدة من الديانة اليهودية والمسيحية، الأمر الذي زاد من تشابك المشهد، وأضاف لتركيبته الدينية والعقائدية الكثير من التحديات والتعقيدات.

فرغم ظهور وانتشار الديانة الجديدة في شبة الجزيرة العربية، فإن المدينة المقدسة، ومع بعدها المكاني، اكتسبت مكانة خاصة عند المسلمين بين ليلة وضحاها، عندما أعلنت القبلة الأولى لصلاتهم، ومسرى نبيهم في حادثة الإسراء الشهيرة.

" سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الْأقصى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إنه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"

سورة الإسراء –قران كريم

واستمر المسلمون يصلون مولين وجوههم للقدس ستة عشر شهرا كاملة، قبل أن يتم تحويل القبلة إلى كعبة مكة، التي كانت تعتبر مكانا مقدسا للعرب من قبل ظهور الإسلام.

"قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وإن الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أنه الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ".

سورة البقرة – قران كريم

ومع تنامي قوة المسلمين وتوسع رقعتهم، استطاعوا بناء دولة قوية تضم القبائل العربية تحت لوائها للمرة الأولى في التاريخ، وكعادة الإمبراطوريات الفتية شديدة القوة تقدم العرب سريعًا إلى بلاد الروم، حتى وجدت الحامية الرومانية نفسها وجهًا لوجه مع الجيوش الإسلامية التي تحاصر أورشليم، وكان حصارًا شديدًا استمر لخمسة أشهر كاملة، حتى اضطر أهلها للتسليم نظرًا لنقص المؤن والعتاد، ورفض البطريرك "صفريونوس" أن يسلم المدينة للقائد العربي أبي عبيدة بن الجراح خوفًا على مقدساتها، وأصر أن يحضر

الخليفة عمر بن الخطاب لتسلم مفاتيح المدينة بنفسه، وتم ذلك في احتفال رمزي عام 636 ميلاديا، واتفقا على كتابة وثيقة تبيح حرية العبادة والحفاظ على المقدسات سميت "العهدة العمرية"، وقد أشار المؤرخ أبو جعفر الطبري في كتاباته إلى أن الطرفين اتفقا، في تلك الوثيقة، على استمرار نفي وإبعاد اليهود عن المدينة، وتغير اسم المدينة الروماني ليصبح "بيت المقدس" أو القدس.

واستمر الحكم الإسلامي للمدينة فترة طويلة، انتقلت من يد الأمويين إلى العباسيين ثم الفاطميين، وبدأت المساجد والآثار الإسلامية تجاور الكنائس والآثار المسيحية واليهودية، لتصبح القدس، أو بيت المقدس، مدينة ليس لها مثيل في العالم من حيث الأهمية الدينية.

وقد شهدت فترة الحكم الإسلامي لبيت المقدس، التي امتدت خمسة قرون كاملة، صراعات على السلطة واضطرابات عنيفة، حيث قضت كل خلافة على سابقتها، بدءا من العباسيين الذين استطاعوا أن يقضوا على خلافة بني أمية ويزيحوا الدولة الأموية من طريقهم، ثم تفتت الدولة العباسية و كان ظهور الفاطميين والقرامطة، وانتهت تلك الحقبة الطويلة بحكم السلاجقة للقدس عام 1071 ميلاديا.

وكان السلاجقة من القبائل الرعوية من مناطق تركستان بوسط آسيا، وتميز حكمهم بالشدة والغلظة والتعصب وإراقة الدماء، فهدموا بعض الكنائس المسيحية وضيقوا على الحجاج الأوروبيين عند زيارة بيت المقدس، لتصارعهم مع ملوك أوروبا في آسيا الصغرى، ورغبتهم في الاستيلاء على مدينة القسطنطينية.

وقد استغل الأوروبيون هذا العداء المعلن من جانب السلاجقة، فأعلنوا حربًا مقدسة لاستعادة أورشليم من أيدي المسلمين، وكانت فرصة سانحة لملوك إنجلترا وفرنسا للتخلص من متاعبهم الداخلية، المتمثلة في الإقطاعيين وأمراء الحرب، وتوحيد جهودهم لهدف مشترك، كالاستيلاء على القدس بما تحتويه من كنوز ومقدسات.

وحاصرت الجيوش الصليبية القدس لستة أسابيع في عام 1099، واستولت عليها بقيادة ريمون دي أجيل، وقتلت أغلب سكانها من الطوائف المختلفة "المسلمين والمسيحيين واليهود"، ولكن، وبعد أن استقر الأمر للحكام الصليبيين، بدأ اليهود في القيام بهجرات صغيرة في اتجاه العودة للقدس من إنجلترا وفرنسا. والجدير بالملاحظة أن الخلاف الديني كان على أشده بين الأقباط الشرقيين/الأرثوذكس من سكان المدينة الأصليين، وبين الصليبيين/ الكاثوليك، الوافدين مع الحملات الصليبية، وذلك لأسباب مذهبية وعقائدية،

وزاد من تصاعد الخلاف أن الكاثوليك كانوا يعملون على أن تتحول تبعية المدينة للبابا في روما، ما سيغير طبيعتها الدينية، ولذلك فقد اضطر العديد من مسيحيي القدس ورهبانها للهرب إلى مصر، وإلى مناطق أخرى بفلسطين.

وظلت القدس في يد الصليبيين الكاثوليك، أو "اللاتينيين" كما اصطلح على تعريفهم، حتى هزمهم صلاح الدين في موقعة حطين عام 1187 ميلاديا، وتقدم بجيشه حتى القدس وحاصرها، وتحت وابل من الأسهم والحجارة المتبادلة نجح في اختراق الحائط الشرقي للمدينة فاستسلمت حاميتها، واتفقوا على الصلح، وسمي ذلك الصلح بصلح "الرملة"، الذي نص على أن يسلم الصليبيون القدسَ لصلاح الدين، على أن يسمح لهم بالرحيل مقابل فدية مالية عن كل رجل وامرأة وطفل، كما يسمح لهم بالحج وممارسة الشعائر الدينية.

وظلت القدس في حلقة من الصراعات الدموية بين الأيوبيين ومن بعدهم المماليك من ناحية، وبين الصليبيين اللاتينيين من ناحية أخرى، حتى جاءت قبائل المغول والتتار التي ترجع أصولها لإقليم منغوليا في أواسط آسيا، بقيادة هولاكو، فسحقت جيوشهم كل من واجههم حتى استولوا على القدس في مذبحة مروعة، واستمروا في التقدم غربًا حتى أوقفهم الجيش المصري المملوكي بقيادة الظاهر بيبرس، واستطاع المماليك الحفاظ على القدس تحت حكمهم لفترة طويلة، طردوا خلالها الصليبيين من الشام نهائيًا، في عهد السلطان قلاوون عام 1291 ميلاديا، وتوقفت حملاتهم على الشرق، وانتهى فصل من الصراع الدموي القاتم الذي نشر أجنحته السوداء على المدينة المقدسة لما يقرب من قرنين من الزمان، لتبدأ القدس العهد المملوكي بتركيبة بشرية جديدة، تضم العرب والأرمن والأقباط واللاتينيين والسريان واليونانيين واليهود.

وبمرور الوقت تبدأ موازين القوى في التغيير والتشكل مرة أخرى، بظهور الدولة العثمانية التي أسسها عثمان الأول في تركيا، التي سرعان ما تحولت لإمبراطورية قوية مترامية الأطراف تسيطر على أجزاء من آسيا وإفريقيا وجنوب شرق أوروبا، حيث نجح السلطان العثماني محمد الفاتح في ضم القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام 1453 ميلاديا، ثم نجح خليفته سليمان الأول في احتلال مصر والشام، والقضاء على الدولة المملوكية وشنق آخر سلاطين المماليك طومان باي، لتظل القدس تحت الحكم العثماني في الفترة من عام 1517 إلى 1917 ميلاديا.

وهكذا استمرت المدينة في التغيير والتشكل، لتتخذ الدورة تلو الأخرى والمسار تلو الآخر، مقترنة فيها الحياة بالصراع، والصراع بالموت، والموت

بالبعث وإعادة الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



ويسألونك عن الشتات

"وَكَمَا فَرِحَ الرَّبُّ لَكُمْ لِيُحْسِنَ إِلَيْكُمْ وَيُكَثِّرَكُمْ، كَذلِكَ يَفْرَحُ الرَّبُّ لَكُمْ لِيُفْنِيَكُمْ وَيُهْلِكَكُمْ، فَتُسْتَأْصَلُونَ مِنَ الأرض الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكَهَا. وَيُبَدِّدُكَ الرَّبُّ فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ مِنْ إقصاء الأرض إلى أَقْصَائِهَا، وَتَعْبُدُ هُنَاكَ آلِهَةً أخرى لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلاَ آبَاؤُكَ، مِنْ خَشَبٍ وَحَجَرٍ. وَفِي تِلْكَ الأمم لاَ تَطْمَئِنُّ وَلاَ يَكُونُ قَرَارٌ لِقَدَمِكَ، بَلْ يُعْطِيكَ الرَّبُّ هُنَاكَ قَلْبًا مُرْتَجِفًا وَكَلاَلَ الْعَيْنَيْنِ وَذُبُولَ النَّفْسِ. وَتَكُونُ حَيَاتُكَ مُعَلَّقَةً قُدَّامَكَ، وَتَرْتَعِبُ لَيْلاً وَنَهَارًا وَلاَ تَأْمَنُ عَلَى حَيَاتِكَ. فِي الصَّبَاحِ تَقُولُ: يَا لَيْتَهُ الْمَسَاءُ، وَفِي الْمَسَاءِ تَقُولُ: يَا لَيْتَهُ الصَّبَاحُ، مِنِ ارتعَابِ قَلْبِكَ الَّذِي تَرْتَعِبُ، وَمِنْ مَنْظَرِ عَيْنَيْكَ الَّذِي تَنْظُرُ. وَيَرُدُّكَ الرَّبُّ إلى مِصْرَ فِي سُفُنٍ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي قُلْتُ لَكَ لاَ تَعُدْ تَرَاهَا، فَتُبَاعُونَ هُنَاكَ لأَعْدَائِكَ عَبِيدًا وَإِمَاءً، وَلَيْسَ مَنْ يَشْتَرِي"

سفر التثنية - العهد القديم

"وَيُكْرَزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ هذِهِ فِي كُلِّ الْمَسْكُونَةِ شَهَادَةً لِجَمِيعِ الأمم. ثُمَّ يَأْتِي الْمُنْتَهَى. فَمَتَى نَظَرْتُمْ «رِجْسَةَ الْخَرَابِ الَّتِي قَالَ عَنْهَا دَانِيآلُ النَّبِيُّ قَائِمَةً فِي الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ لِيَفْهَمِ الْقَارِئُ فَحِينَئِذٍ لِيَهْرُب الَّذِينَ فِي الْيَهُودِيَّةِ إلى الْجِبَالِ، وَالَّذِي عَلَى السَّطْحِ فَلاَ يَنْزِلْ لِيَأْخُذَ مِنْ بَيْتِهِ شَيْئًا، وَالَّذِي فِي الْحَقْلِ فَلاَ يَرْجعْ إلى وَرَائِهِ لِيَأْخُذَ ثِيَابَهُ. وَوَيْلٌ لِلْحَبَالَى وَالْمُرْضِعَاتِ فِي تِلْكَ الأيام! وَصَلُّوا لِكَيْ لاَ يَكُونَ هَرَبُكُمْ فِي شِتَاءٍ وَلاَ فِي سَبْتٍ، لأنه يَكُونُ حِينَئِذٍ ضِيقٌ عَظِيمٌ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مُنْذُ ابْتِدَاءِ الْعَالَمِ إلى الآن وَلَنْ يَكُونَ"

إنجيل متى - العهد الجديد

"وقَضَيْنَا إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا }4{ فَإِذَا جَاء وَعْدُ أولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أولي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً {5} ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأموال وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أكثر نَفِيرًا {6} إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُووُاْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أول مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا {7} عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وإن عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ."

سورة الإسراء - قران كريم

الشتات Disaporaدياسبورا، هي كلمة يونانية الأصل، وتعني انفصال الناس عن أوطانهم والعيش في بلاد غريبة.

وقد ارتبط ذلك المصطلح وتلك الكلمة باليهود بشكل كبير، حتى إن بعض المعاجم الأجنبية قد ذهبت لتفسرها بانفصال اليهود عن إسرائيل وعيشهم

متفرقين في بلاد الغربة، وبحسب العهد القديم والمصادر التاريخية، فإن دولة اليهود الصغيرة لم تصمد طويلاً أمام التغييرات السياسية والعسكرية في المنطقة، ولم تستطيع أن تنمي جذورها وتحافظ على استقلالها لفترة طويلة كما كان يأمل أبناؤها، فقد هبت عليهم العاصفة تلو الأخرى حتى قلعت جذورهم تمامًا، وبدأ الأمر أولا بالسوريين فغزوا مملكة الشمال ومحَوهَا للأبد من الخريطة، واختفى الأسباط العشرة الذين كانوا يسكنونها، ولم يلبث البابليون، بقيادة نبوخذ نصر، أن عصفوا بمملكة الجنوب، وسبوا شعبها وقادوهم كخدم وعبيد إلى بابل، فاختفت آثار الدولة، ولكن ومع حكم الفرس وسماح الملك قورش بعودة اليهود للقدس عادت أعداد كبيرة منهم، ولكنهم عاشوا تحت راية الفرس وفي ظل حكمهم، ثم تعاقب عليهم الحكام فكان اليونانيون ثم الرومان، حتى دمر هيرودس، الإمبراطور الروماني، القدس تمامًا ومحا أثرها عقب إحدى ثورات اليهود، وكان الشتات العظيم عام 70 ميلاديا، ليخرج اليهود متفرقين بعد أن دخل عليهم القائد الروماني تيتوس على رأس جيش كبير، لم يكن يحتاج لربع عدده، لإخماد الثورة اليهودية، ولكنها كانت رسالة قوية لكل المستعمرات الرومانية المحيطة وبالشعوب الخاضعة لروما في أنحاء العالم.

وخرج اليهود منتشرين في محيط سوريا، وهاجر البعض لشبه الجزيرة العربية، فاستقر في صحرائها ووصل إلى اليمن، وانضم بعضهم لمن تبقى من اليهود في العراق وبابل ولم يغادر بعد السبي، والبعض الآخر هاجر للإسكندرية، والبعض استمر متوجهًا غربا حتى وصل إلى ليبيا والمغرب، والبعض انتشر في شمال البحر المتوسط وبلاد اليونان، ليبدأ عهدٌ جديدٌ من التاريخ اليهودي سمي بالتاريخ الوسيط.

ورغم حالة التشتت والضياع التي عاشها الشعب اليهودي، وأنذرته بالفناء وضياع الهوية، فإن هذا لم يحدث مطلقًا؛ فقد بقي كتابهم المقدس، وكذلك تقاليدهم الدينية ظلت باقية.

وذلك يرجع إلى عاملين رئيسين: العامل الأول هو تعاون بعض رجال الدين اليهودي مع الرومان، على الرغم من العداوة الظاهرة فيما بينهم، فسمح لهم الرومان بتكوين مدارس دينية يهودية على أن تكون خارج القدس، فبنيت تلك المدارس في أنحاء متفرقة من سوريا وفلسطين، وأشهر رجال الدين اليهودي الذين تعاونوا مع الرومان "يوحنا بن زكاي" الذي خرج من القدس ليافا وأنشأ مدرسة دينية اعتبرت بديلا مناسبًا لمدارس القدس، وسُمح فيها بممارسة العبادات والشعائر اليهودية، ما ساهم في بقائها والحفاظ عليها.

والعامل الثاني هو ترجمة الكتاب اليهودي المقدس لليونانية، في عهد خلفاء الإسكندر الأكبر، في وقت كانت اللغة اليونانية هي اللغة الأهم والأكثر انتشارا

في أنحاء العالم، ما حفظ الكتاب المقدس بما يحتويه من تعاليم وطقوس من الضياع، وسَهَّلَ انتقاله ويَسَّرَ قراءته.

وخلال الفترة الممتدة من عام 70 ميلاديا وحتى الرسالة التي بعثها آرثر جيمس بلفور، بتاريخ 2 نوفمبر 1917، إلى اللورد ليونيل وولتر دي روتشيلد، يشير فيها إلى تأييد الحكومة البريطانية إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، والتي أطلق عليها "وعد بلفور" - اِمتد شتات اليهود في شتى بقاع العالم، والذي وثقة اليهود أنفسهم في متحف "الشتات اليهودي-Beit Hatfutsot " أو كما يطلقون عليه متحف الشعب اليهودي، القائم بداخل جامعة تل أبيب، والذي تم إنشاؤه في عام 1978، ليعبر عن تلك المرحلة المهمة في تاريخ اليهود، مستخدما حصيلة التجارب اليهودية والخبرات المتنوعة التي اكتسبوها عبر السنين في التسويق والإعلام، من خلال عدة أساليب متنوعة من الحكي والسرد والرسم والعمارة والوسائط المتعددة، بهدف إرسال رسالة واضحة وقوية للعالم حول رؤية اليهود لأنفسهم وتاريخهم في تلك المرحلة، والعوامل التي شكلت وعيهم ووجدانهم ودفعتهم ليصبحوا ما هم عليه الآن.

كما يؤرخ المتحف، من وجهه نظر قومية دينية، تاريخ الشتات اليهودي بين شعوب العالم المختلفة، وحلم العودة لأرض الميعاد.

ويحتوي المتحف على العديد من المجسمات والأعمال الفنية والنماذج والتماثيل، التي تحاكي قصصًا وأماكن ووقائعَ وأشخاصًا من التاريخ اليهودي في شتى أنحاء العالم. و تُعبِّرُ كذلك عن قصص وحكايات تراثية تناقلتها الأجيال، كما يحتوي على مجموعة كبيرة من الأفلام الوثائقية والمواد المسموعة، وعلى عددٍ من قواعد البيانات التي يمكن من خلالها البحث عن أصول العائلات اليهودية، وتاريخ تنقلها بين البلاد المختلفة، وكذلك مسارات الحياة المختلفة لأفرادها.

وأغلب هذه المجسمات والأعمال الفنية ليست أعمالاً أصلية، ولكنها نماذجُ مقلدة ونسخٌ مصنوعة بيد فنانين عاصروا بناء المتحف.

ويحتوي مدخل المتحف على مجسم كبير للجنود الرومان وهم يحملون تابوت العهد، والشمعدان السباعي الشهير "مينوراه"، بعد تدمير القدس ونفي اليهود خارجها، ليصبح هذا المجسم بمثابة صدمة افتتاحية تجذب أنظار المشاهد وتثير تعاطفه، ومدخلٍ مناسبٍ يحفز الذهن على تلقي كل المواد التالية من خلال وجهة نظر معدة مسبقاً بعناية، وبعد انتهاء جولة المشاهد في قاعات المتحف، وقبل أن يخرج مباشرة، آخر ما تقع عليه عين الزائر نفس

الشمعدان الذي يعتبر رمزًا لدولة إسرائيل، وشاهدًا على وجودها واستقرارها وتحقق حلمها الأكبر والأوحد بالعودة.

كما أنها إشارة فنية رمزية، تطبع في الذاكرة ديمومة ذلك الصراع بين بني إسرائيل وبين أعدائهم، وانتصارهم في النهاية على هؤلاء الأعداء وتمكينهم من بناء دولتهم.

ويُقسم المتحف في الداخل إلى ستة أقسام رئيسية متتالية، يعتبرها المتحف الركائز الأساسية للتاريخ اليهودي في الشتات، كما يعتبرها الركائز الأساسية للحفاظ على الفكر والهوية خلال تلك المرحلة الصعبة، وهذه الأقسام بالترتيب هي:

- العائلة - Family
- المجتمع - Society
- الإيمان - Faith
- الثقافة - Culture
- اليهود بين الأمم والحضارات - Jews between nations
- العودة إلى صهيون - Back To Zion

لنجد أن أقسام المتحف قد تم اختيار أسمائها بعناية، كسيناريو درامي متصاعد يبدأ من الأسرة كنواة، وحاضن رئيسي للفكرة المطلوب التعبير عنها، ويستمر في التصاعد لتصبح الأسرة مجتمعا ذا إيمان وثقافة يهديانه بين الأمم وعبر الحضارات، حتى يصل لنهاية حتمية بالعودة لأرض الميعاد "زيون/ جبل صهيون".

وبالاشتباك بشكل أكبر مع أقسام المتحف، بدءًا من القسم الأول "العائلة" نجد أنه يعتبر العائلة اليهودية هي حجر الزاوية في تركيب المجتمع، وهو النموذج المصغر للأرض أو الدولة التي يحلم بتأسيسها، فتحمل العائلة معها بشكل دائم كل الطقوس والعادات والأفكار الواجب نقلها معهم، من أرض لأرض، ومن شتات لشتات، فتصبح الطقوس واجبًا مقدسًا يلتزم به الجميع، منذ ميلاد الطفل الذي يبدأ حياته بالطهارة من النجس الحسي والمعنوي، ثم يمر بمرحلة الختان، حتى يصل لسن البلوغ والتكليف - سن الثالثة عشرة- فتقام له مجموعةُ من الطقوس المرتبطة بهذه السن وتسمى "بار متسفا" كإعلان عن خضوعه لأحكام الرب، واستعداده لتعلم أوامره وتجنب نواهيه والقبول بحسابه.

وفي قسم العائلة أيضًا يخصص جزء لتوضيح "شعائر السبت" كيوم العيد والإجازة الأسبوعية، ثم يوضح ذلك القسم الأعياد الدينية التي يعتبرها جزءًا أصيلاً من الهوية والفكر اليهودي، لما تحمل من معانٍ قومية وعقائدية يتم إحياؤها من خلال الطقوس التي تتبع في تلك الأعياد، ومن أهم الأمثلة على ذلك عيد الفصح الذي يمثل ذكرى خروج اليهود من مصر هربًا من الفراعنة، وفيه يأكلون خبزًا وفطيرًا غير مخمر، تَشَبُّهًا بأجدادهم الذين خرجوا من مصر على عجالة ولم ينتظروا العجين حتى يخمر، كما رُوي في سفر الخروج، ثم تأتي بعد ذلك طقوس وأحكام الزواج الذي يضمن تكرار دورة الحياة، واستمرار الأسرة حاملة معها الحلم والطقوس والشعائر عبر الأجيال.

ويمثل القسم الثاني في المتحف "المجتمع اليهودي" نماذجَ من المهاجرين الأوائل في شتى بقاع الأرض، ويعرض ثلاثة أفلام سينمائية وثائقية للمجتمع اليهودي في ثلاث من المدن بالمغرب واليونان وأوروبا الشرقية، ويوضح هذا القسم ما يعتبره اليهود مُهمًّا بالنسبة لهم لاستمرار الحياة بين الشعوب الغريبة، كالتعليم والتجارة ومزاولة الحرف المختلفة التي تدر دخلا كبيرا، ويسهل من خلالها جمع ونقل الأموال، ويحتوي ذلك القسم على قاعدة بيانات ضخمة تحتوي على تاريخ العائلات اليهودية وأبنائها عبر العصور والبلاد المختلفة.

ثم يُعَبِّرُ القسم الثالث "الإيمان" عن العبادات، شارحًا تاريخ التوراة وأسفارها ونماذجَ منها بلغات مختلفة، ويعرض مجموعة هائلة من الرسومات والأعمال الفنية المستوحاة من الآداب اليهودية والقصص العبرية، ويحتوي ذلك القسم على قاعة المعابد " Cengage Hall" وهي القاعة التي تحتوي على اثنين وعشرين نموذجًا مصغرا لأشهر المعابد والمدارس اليهودية في أنحاء العالم المختلفة، وهي بالطبع ليست ذات طراز معماري واحد، أو سمات فنية موحدة، بل تظهر في طرز معمارية مختلفة، وسمات زخرفية وفنية مختلفة، تشبه السمات المعمارية الخاصة بالدول التي بنيت بها، والعصور التي بنيت خلالها، وبعض هذه المعابد قد هُدم أو تحول لكنائس، وبعضها كان يبدو على هيئة حصون منيعة ذات جدران عالية، كنوع من أنواع الحماية.

والقسم الرابع هو قسم "الثقافة"، ويبدأ أيضا بإشارة بالغة الأهمية تربط الثقافة باللغة والكتابة، حيث يضع مجسما للحرف العبري "א" وهو الحرف الأول في الأبجدية العبرية وينطق ألفًا، فيما يشبه نطق الحرف الأول في اللغة العربية، محاولا أن يدلل على أن الهوية والثقافة اليهودية مستقلة ونابعة من لغتهم الخاصة، وأن اللغة هي المدخل الأول والشرعي لفهم تلك الثقافة والتعمق فيها، والجدير بالذكر أن التشابه بين الأبجدية العربية والأبجدية

العبرية لا يقتصر فقط على الحرف الأول "ألف"، بل يمتد للعديد من الحرف الأبجدية وحتى القواعد النحوية بشكل مثير للأسئلة.

ويستعرض القسم الثقافي أيضًا أهم اليهود الذين ذاع صيتهم في تاريخ العالم من علماء ومفكرين وأدباء وشعراء وفنانين، وكذلك الشخصيات ذات الأصول اليهودية الحاصلة على جائزة نوبل في شتى المجالات، ورغم العدد الكبير من الشخصيات المطروحة في هذا القسم، سواء من الشخصيات العامة أو من الحاصلين على جائزة نوبل، يلاحظ أن معظمهم يحملون جنسيات أخرى كالأمريكية والألمانية والفرنسية والإنجليزية والروسية، وكانت كتاباتهم وأعمالهم الفنية والأدبية وأبحاثهم العلمية بلغات مختلفة ومتنوعة، وكذلك الحاصلون على جائزة نوبل، فرغم أن عددهم ضخم ويمثل تقريبا ربع الحاصلين على تلك الجائزة على الإطلاق، فإن عدد من يحملون الجنسية الإسرائلية منهم محدود جدا، وأبرزهم "مناحم بيجين، وشيمون بيريز، وإسحاق رابين"، وكذلك من اللافت للنظر تخصيص ركن كامل في قاعة الموسيقى، للموسيقي ومؤلف الأغاني الأمريكي الجنسية ذي الأصول اليهودية الأوُكرانية بوب ديلان، الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام 2016.

ويحتوي هذا الجزء الخاص بالثقافة على قطاع كامل يحكي عن تطور وتاريخ الجرائد اليهودية في العالم، وهي إشارة دلالية واضحة لعلاقة اليهود بالإعلام، وإدراكهم المبكر لأهمية الآلة الإعلامية ودورها المؤثر في صناعة التاريخ.

وانطلاقا من هذه الرؤية، فقد تعاملوا منذ البداية مع الصحافة بمنطق يشبه منطقهم في التعامل مع الآداب والنصوص المقدسة التي توثق الأحداث من ناحية، ومن ناحية أخرى تصنع واقعًا مغايرًا يمنح الأمل ويعزز الهوية في عصور الشتات والاضطهاد.

وبعد القسم الثقافي نجد "قسم اليهود بين الأمم" وهو القسم الذي يرصد تحركات اليهود في دول العالم المختلفة في عصور الشتات، وخصوصا في أوروبا وآسيا، مرورا بالقارة الأمريكية والعالم الجديد.

ثم قسم "العودة إلى زيون - صهيون". وبين الأقسام يقف عمود تذكاري ضخم بطول المبنى يحمل صورًا ومعلومات عن ضحايا اليهود الذين تعرضوا للاضطهاد في أنحاء العالم، وأغلبهم في ضحايا المحرقة النازية "الهولوكوست" وأحداث عنف أخرى في أوروبا وروسيا.

وتحمل قاعات المتحف المختلفة، بترتيبها وتركيبتها الفريدة، حالة معقدة شديدة التشبيك بين الواقع التوثيقي والخيال الإبداعي، التي تستخدم في فرض رؤية محددة وانطباع معد مسبقًا حول اليهود وأزمتهم المتعلقة بالوجود وصراع الهوية، ليترك المتحف في نفوس زائريه مجموعة من المشاعر

المختلطة والأفكار المهيمنة والحكايات الفريدة، التي ترصد تاريخَ شعبٍ لم يعرف الاستقرار في بقاع العالم على وسعها، ولم يندمج مع غيره من الشعوب على اختلاف طباعهم وثقافاتهم، وكان دائمًا ما يحلم بالعودة لنقطة البداية وأرض الميعاد.

وخروجًا من المتحف، وبالبحث عن تاريخ لليهود في العالم في العصر الوسيط، أو تاريخ الشتات، فنجد أننا أمام سلسلة طويلة من الهجرات والتنقلات التي استمرت لما يزيد على 2000 عام، في حكاية واحدة متكررة، تبدأ بدخول اليهود مجتمعًا جديدًا مقابلين بالترحاب أو الترقب والقلق، ثم تعقب تلك الفترة حالة التوتر وتدهور العلاقات مع سكان ذلك المجتمع، تتطور إلى عدد من الخلافات والصراعات والمؤامرات، حتى يصل الأمر في النهاية للقمع والطرد والتهجير، وتصحب كل هذا فترات من الاندماج والتواؤم والعديد من المظاهر الاجتماعية والاقتصادية اللافتة.

وكان لليهود عند استقرارهم في المجتمعات الجديدة التي توافدوا عليها العديد من الصفات، النفسية والفكرية والاجتماعية، التي فرضت عليهم سلوكًا عامًا وطابعًا مغايرًا شَكَّلَ مع الوقت حاجزًا ثقافيًّا، وأدخلهم في عزلة اختيارية، ما تسبب في أغلب الأحيان في صدام مع تلك المجتمعات، وعرضهم دائما للشك والاتهام الذي كان كثيرا ما يتحول لاضطهاد وتنكيل.

ويرجع ذلك الأمر لعدة أسباب بعضها يرجع لليهود أنفسهم، وسلوكهم الذي يميل للانعزال وعدم رغبتهم في الاندماج والذوبان في الشعوب التي سكنوا إليها، فكانوا لا يدينون بشكل حقيقي وكامل بالولاء لملوك وحكام تلك الدول التي عاشوا فيها، ولا يعتبرون أنفسهم من شعبها، وكانت قناعتهم قائمة على أساس أنهم أصحاب هوية مستقلة وديانة متفردة، لا تندمج مع غيرهم من الشعوب التي كانوا يطلقون عليها "جوييم גויים" أي الأغيار، ويشمل هذا التمييز حظر الزواج وحظر تناول الطعام مع الأغيار، وغيرها من العادات التي من شأنها خلق فجوة ثقافية واجتماعية كبيرة.

وبعض أسباب عزلة اليهود يرجع لحالة النفي التي فرضها عليهم الرومان الذين طردوا اليهود من القدس ونفوهم خارجها في وقت كان العالم القديم يدين أغلبه للإمبراطورية الرومانية، فخرجوا من القدس أعداءً للإمبراطور الروماني، وعاشوا تحت لوائه في بلاد أخرى موصومين بعار الهزيمة والطرد، وغلف ذلك التباعدَ الكبيرَ بين اليهود وغيرهم من الشعوب التي سكنوا في أرضها غلافٌ ديني صارم يرى أن اليهود شعب الله المختار، وأن لهم قداسة خاصة، وأن الرب قد اصطفاهم بهذه الديانة عن غيرهم من الشعوب التي تعتبر أقل منهم منزلة، بل إن الرؤى اليهودية الأكثر تشددًا ترى أن غير اليهود

كيانات شيطانية مدنسة، ولذلك لا يقوم أتباع الديانة اليهودية بالدعوة لدينهم، ولا يعلمون طقوسهم إلا لأبنائهم، حفاظًا على الدين من دنس الأغيار.

واعتبر اليهود في قرارة أنفسهم كل الشعوب التي تحيط بهم شعوبًا وثنية، ولهذا فإن الديانة اليهودية، رغم أنها أقدم الديانات الإبراهيمية، فإنها أقلها أتباعا وأقلها انتشارا.

وكان من أهم أسباب عزلة اليهود وتباعدهم عن غيرهم من الشعوب أنهم عند ظهور الديانة المسيحية، بدعوةٍ جديدة، قد ناصبوها العداء بشكل واضح ومعلن، وكان لهم من السطوة والنفوذ ما يمكنهم من محاصرتها والتضييق عليها في بداياتها المبكرة، واستمر العداء بين اليهودية والمسيحية في النمو والتطور، حتى أعلنت الديانة المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية، وبذلك أصبحت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية صاحبت اليد العليا في الشؤون الدينية بل والسياسية في شتى أنحاء أوروبا، ما غير موازين القوة بين الديانتين، وسمح للمسيحيين بفرض سيطرتهم والثأر من اليهود.

ورغم أن الكتاب المقدس "كتاب العهود" يحمل جزءًا كبيرا مشتركًا بين المسحيين واليهود، وهو ما يطلق عليه اليهود "التناخ" ويطلق علية المسيحيون "العهد القديم"، ورغم التشابه والأصول المشتركة للديانتين، فإن العداء كان قويًا ومستحكمًا، ويرجع العداء إلى عدم اعتراف اليهود بنبوة المسيح، وإعلانهم أن نبيهم "ملاخي" هو آخر الأنبياء، وأن عهده هو آخر عهود النبوة.

وكذلك فقد طعن اليهود في المسيح ونسبه وفضيلة والدته، وقد ذُكر ذلك بوضوح في التلمود، وهو الكتاب الأهم في الديانة اليهودية بعد التوراة.

فيصف التلمود المسيح برؤية قاسية، تعتمد على إعلانه ابنًا غير شرعي حملته أمه من جندي روماني يسمى بانديرا، إذ امتهنت البغاء، ولذلك كان يتم وصفه في التلمود باسم "ابن بانديرا - مامزير" وهي تعنى ابن الزنا.

كما يقول التلمود إن العائلة المقدسة قد هاجرت إلى مصر هربًا من العار، وهنالك تعلم المسيح السحر ثم عاد لينصب نفسا إلها، وتنتشر في صفحات التلمود أوصاف مشينة للمسيح في مواضع مختلفة، وسمى التلمود الكنائس المسيحية بيت تيفلاه Beth Tiflah أي بيت الباطل والحماقة، ووصف أهلها بأنهم أهل بدع وهرطقة، وقال إن من المفترض على اليهود المؤمنين ألا يتاجروا معهم، ولا يعلموا أبناءهم حرفة، ولا يلتمسوا منهم الشفاء.

وكذلك تقول القصص البابلية من التلمود إن يسوع قد تم رجمه أولا، قبل شنقه على شجرة عالية وجهة للجموع، وإنه لم يجد من يدفع عنه تهمة

السحر والشعوذة، لأنه حث بني إسرائيل على عبادة الأوثان، وترى أنه سيعاقب عقابا أبديًا في الحياة الأخرى على خطيئته.

ومن جانبهم اعتبر المسيحيون التلمود كتابًا وثنيًّا مملوءًا بالتضليل والهرطقة، وحرقوا العديد من نسخة، ومنعوا تداوله، واعتبروا اليهودَ شعبًا خائنًا متآمرًا لأنه قتل المسيح وعذبه.

وكان من مظاهر ذلك العداء أن منعوا اليهود من ممارسة الكثير من الحرف، وأجبروهم على الإقامة في أطراف المدن أو في أحياء منفصلة، وكذلك أجبروهم على ارتداء أزياء خاصة وعلامات تميزهم، وغير ذلك من مظاهر التضييق والحصار.

وظلت العلاقة بين المسيحيين، وهم غالبية سكان أوروبا، وبين اليهود، وهم الأقلية الوافدة، على درجات مختلفة من التوتر الذي كان ما إن يهدأ حتى يعود للتصاعد مرة أخرى.

وكانت هجرات اليهود الأُولى خارج القدس في 70 ميلاديا إلى بابل، التحاقا بأقرانهم الذين لم يغادروا بابل بعد السبي، فأصبحوا أعدادا كبيرة، وكونوا البذرة الأُولى للجماعة اليهودية في العراق، التي أصبحت المقر الرئيسي الجديد للتوراة والتلمود في الشرق بعد سقوط القدس، وانتشر اليهود في لبنان وإنطاكية وسوريا، ومارسوا التجارة وبنوا مجمعات دينية ودُورَ عبادةٍ، ولكن مع الوقت بدأ حظر الديانة اليهودية، ومنع الختان، وجُرمت ممارسة الشعائر، كما مُنع اليهود من الانخراط في الجيش ومزاولة بعض الأنشطة الحرفية والتجارية.

وعاش عدد كبير من اليهود في الإسكندرية وتفاعلوا مع الحضارة الهيلينة والفلسفة اليونانية، واستفادوا منها كثيرا، وبرعوا في الطب والفلسفة، وتشبهوا باليونانيين، فكانوا يرتدون الملابس اليونانية ويتحدثون باللغة اليونانية، ولكن أوضاعهم ساءت كثيرا بعد احتلال الرومان لمصر، حيث عاملتهم الكنيسة الشرقية معاملة سيئة، مثلما كانت تعامل المصريين الذين تمسكوا بديانتهم الفرعونية القديمة، واضطهدتهم ودمرت دور عبادتهم، وحرمتهم من الكثير من الحقوق والمكتسبات التي حصلوا عليها في عهد البطالمة.

ومع استمرار التضييق، اتجه اليهود تدريجيا لأوروبا، وزاد من سرعة هذا الانتقال زيادة النفوذ الإسلامي في شمال إفريقيا، ثم إسبانيا، حيث وجد اليهود في المسلمين بعض نقاط التقارب كتشابه قصص الأنبياء وتشابه طقوس الذبح، وكذلك الاتفاق على مبدأ تحليل وتحريم بعض الأطعمة، وفقًا

لرؤية دينية تسمى في الإسلام "حلالاً" وفي اليهودية "كشروت"، وكذلك التشابه في عادات أخرى كالختان وتحقير الخنزير، وغير ذلك.

فانتقلت التوراة وحاملوها عبر المتوسط إلى إسبانيا، والحقيقة أن هذا الانتقال قد بدأ مبكرًا منذ عصر الرومان، ولكن وجودهم لم يزدهر حتى دخلها العرب وسموها "الأندلس"، وشهدت تلك الفترة ازدهارًا كبيرًا لليهود، واعتبروها بالنسبة لهم "العصر الذهبي"، وسُمي اليهود الذين عاشوا في إيبريا "إسبانيا والبرتغال" بـ"السفارديم"، وبرز في ذلك العصر العديد من اليهود السفارديم في مختلف التخصصات، فكانوا علماء وشعراء وأطباء ومستشارين للملوك المسلمين، كما مارسوا شتى الوظائف، واهتموا بالتجارة وتكوين شبكة من المعاملات والعلاقات الاقتصادية، وبدأت الآداب والفنون اليهودية في الانفتاح والتشكل، فأخذت طابعًا مختلفًا بعد أن كان مقتصرًا على الجوانب الدينية، فكتبوا قصائد من شعر الغزل والوصف والرثاء والفخر، وتأثروا ببحور العروض الخليلية مثل الرمل والهزج والطويل والخفيف، وكتب العديد من علمائهم ومفكريهم مؤلفات باللغة العربية ترجمت لاحقا للعبرية، واستخدم بعضهم في كتاباته اللغة العربية، ولكن بحروف عبرية، لتشابه النطق بين حروف اللغتين، وسميت تلك الطريقة في الكتابة "العبرية - العربية"، ومن أشهر مؤلفات اليهود في ذلك العصر "إصلاح الأخلاق" لمؤلفه أبي أيوب سليمان بن يحيى بن جبيرول، الذي كان أيضًا شاعرًا، وكتب قصيدة طويلة تشرح النحو العبري، على غرار ألفية ابن مالك التي تشرح قواعد النحو العربي، ومن الكتب الشهيرة أيضًا كتاب "التقريب والتسهيل" ليونا بن جناح، الذي سماه العرب أبا الوليد مروان بن جناح.

وكان أبرز الشخصيات في هذا العصر الحاخام "موشيه بن ميمون" أو كما سمى بالعربية "موسى بن ميمون"، الذي ولد بقرطبة 1135 ميلاديا، ولقب بموسى الرئيس، أو النسر الكبير، لما كان له من إنجازات واضحة في العديد من العديد من المجالات كالطب والفلسفة، كما كان مترجمًا بارعًا، وله من عدد من المؤلفات الهامة في شرح الديانة اليهودية وتفسير التوراة، مثل دلالة الحائرين، والسراج، وقد تأثر بفلسفة المعتزلة والأشاعرة وبالفلاسفة اليونان، ونقل العديد من أقوالهم، كما برع في علم الكلام وعلم والفلك، وقد ضُرِبَ به المثلُ، إذ قيل "منذ أيام موسى وحتى أيام موسى لم يظهر أحد مثل موسى".

ورغم مكانته الكبيرة بين العرب واليهود فإنه تعرض لاضطهاد شديد في فترات مختلفة، سواء من العرب أو من اليهود المتشددين الذين رفضوا كتاباته التي تشرح التوراة والتلمود وتبسطها، بل وأحرقوا بعضا منها، فهرب إلى المغرب ثم فلسطين، ثم تركها ورحل حتى وصل إلى مصر، وعمل طبيبًا ببلاط صلاح الدين الأيوبي، ورئيسًا للطائفة اليهودية، وما زال في القاهرة

معبدٌ يهودي يحمل اسمه، وكذلك يحمل اسمه أحد المشافي في إسرائيل، وقد طبعت صورته على إحدى فئات العملة الورقية هناك.

ورغم التقارب في فترات كثيرة بين اليهود والمسلمين في الأندلس، فإنه لم يكن تقاربًا أبديا، فكثيرا ما كانت تحدث بينهم الاضطرابات والصراعات، خصوصًا مع ضعف الدولة الأموية وبداية تفككها، ولا سيما مع حكم الموحدين الأندلس.

والموحدون هم مسلمون ترجع أصولهم لقبائل البربر، وكانوا أكثر غلظة من العرب، وأقل تفاهمًا مع غيرهم من الثقافات، وساهم في ازدياد الاحتقان حالة الشك والريبة التي أحاطت باليهود بخصوص تعاونهم مع أعداء الموحدين من الدول المسيحية المجاورة التي ترغب في استعادة إسبانيا وطرد العرب من أرضها، وساعد في نمو ذلك الشك وتعميقِهِ ترحاب اليهود بالجيوش المسيحية الغازية، في الممالك الأندلسية التي سقطت بأيديهم.

ربما فعل اليهود ذلك من باب اتقاء شرور وويلات الحرب، ودرء بطش تلك الجيوش الغازية، ولكن ترحاب اليهود بأعداء الموحدين أدى لاكتسابهم عداء المسلمين، ذلك العداء الذي تصاعد بشدة حتى تم التنكيل بهم في المناطق التي لم تزل تحت حكم الموحدين.

واستمر الوضع في "إسبانيا - الأندلس" دمويًا وقاسيًا لأقصى درجة، حيث كان اليهود بين طرفي صراع عنيف، وتعرضوا للتنكيل والبطش من كل الأطراف، حتى جيوش المسيحيين التي كان تشك أيضًا في ولائهم، نظرًا لتعاونهم مع المسلمين في الممالك التي لم يقوموا بغزوها.

ولم ينته ذلك الفصل الدموي وتحسم تلك المعارك حتى اتحد ملوك قشتالة وليون وأراجون تحت قيادة الملكة إيزابيلا والملك فيرناندو، وسقطت الممالك الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، وانتهى الأمر بسقوط غرناطة، آخر قواعد المسلمين، سنة 1492.

ورغم ما يبدو من أن الحظ قد ابتسم لليهود أخيرًا، بهزيمة العرب وانتصار الجيوش المسيحية التي كانوا يرفعون لها رايات الترحيب، فإن ما حدث كان أمرا غير متوقع بالنسبة لهم، فقد كان أول قرارات الملكة إيزابيلا والملك فرناندو، ما عُرف بمرسوم غرناطة، وهو القرار الذي بموجبه تم طرد كل من المسلمين واليهود خارج إسبانيا، وحرم عليهم العودة إليها مرة أخرى، فرحل من اليهود ما يقرب من 300 ألف، استقر أغلبهم في المغرب وبلاد الأتراك العثمانيين، التي كانت تعج بجنسيات مختلفة كالأرمن والسريان والأكراد.

أما عن اليهود الذين تبقوا في إسبانيا ورفضوا الخروج، فلم يعد أمامهم غير الاختيار بين اعتناق الديانة المسيحية أو الموت، وبالفعل اعتنق عدد كبير منهم المسيحية، وهو ما كان عبئًا مفاجئًا على الدولة الإسبانية، التي وجدت أعدادًا كبيرة من اليهود والمسلمين قد اعتنقوا المسيحية، وأصبح يحق لهم مزاولة كل الأنشطة التي كانت محظورة عليهم من قبل، بل والترقي في المناصب وارتياد الكنيسة، بل وحتى تقديم العظات وشغل المناصب الكنسية الهامة، فقام الملك فيرناندو بإحياء فكرة محاكم التفتيش التي كانت منتشرة في القرون الوسطى، لحماية العقيدة الكاثوليكية، واكتشاف المدعين الذين اعتنقوا المسيحية وما زالوا يحتفظون بديانتهم الأصلية ويمارسون شرائعها سرًّا، وتم ذلك بموافقة البابا سيكتوس، وبموجب عمل محاكم التفتيش فقد تم تعذيب وملاحقه الآلاف من أصحاب الأصول العربية واليهودية بدعوى الكذب والهرطقة، وقُتل منهم الكثير بطرق وحشية، ولم يُلغَ العملُ بمرسوم الحمراء حتى عام 1968 ميلاديا.

وقد فرت أعداد كبيرة من اليهود من بطش تلك الإجراءات إلى إيطاليا، واستقر أغلبهم في فينسيا "البندقية"، وهناك بدأوا العمل بالتجارة، وكانت فينسيا، بحكم موقعها وأهميتها الجغرافية والاقتصادية، مركزًا مهمًا للتجارة العالمية في ذلك العصر، واستغل اليهود خبرتهم التجارية وحالة الانتعاش الاقتصادي التي كانت تحيط بهم وأصبحوا من أهم أصحاب رؤوس المال، وتخصصوا في صناعة الذهب والمشغولات الذهبية والألماس والحرير وغيرها، وأصبح لهم نصيبٌ كبيرٌ في التجارة العالمية تدريجيًا.

لكن ذلك النعيم لم يدم طويلا، فقد أصرت الكنيسة على فصلهم عن السكان المسيحيين، فنقلوا لأحد الأحياء البعيدة المنعزلة، وهو ما عُبِّرَ عنه باللغة الإيطالية بلفظ "ghetto" ومن هذه الكلمة الإيطالية الأصل ظهر مصلح الجيتو ليعَبِّرَ عن الحي اليهودي أو المجتمع اليهودي المنعزل، وأصبح الاسم ملاصقًا لأحياء اليهود المنعزلة في كل أنحاء العالم، وقد رُصد في تلك الفترة أكثر من 4000 مجتمع يهودي في بلاد العالم المختلفة.

وكانت الكنسية الكاثوليكية قد وضعت بعض الضوابط للسيطرة على الجيتو اليهودي، فقد عينت على مدخل الحي اليهودي حراسًا لمنعهم من الخروج ليلاً، وفي الأعياد المسيحية، ومنعتهم من استئجار خادمات مسيحيات.

ولكن رغم كل هذه المضايقات، فقد شهدت فينسيا طفرة هامة في الحياة الاقتصادية صَبّت في مصلحة اليهود بشكل مباشر، حيث تم اعتماد نظام جديد في الاقتراض والمعاملات المالية، أشبه بأنظمة البنوك الحالية، التي تعتمد على الفوائد، وهو ما اعتبرته الكنيسة نوعا من الربا وحرمته، حتى إن البابا أمر بمنع المسيحيين من التعامل مع نظام الاقتراض الجديد، وجرم الفوائد

والمتعاملين معها، وهو ما خلق فراغًا اقتصاديًا لم يلبِ حاجة رجال الأعمال في فينسيا، فشغل اليهود ذلك الفراغ الاقتصادي بمهارة شديدة، فاضطر العديد من التجار المسيحيين للتعامل مع اليهود واستغلالهم كواجهة لأعمالهم في ذلك المجال.

وقد رصد الكاتب الإنجليزي الشهير وليم شكسبير تلك الظاهرة المالية في مسرحيته الشهيرة تاجر البندقية The Merchant of Venice بشخصية التاجر المرابي اليهودي "شايلوك"، الذي أقرض غريمه المسيحي "أنطونيو" المال بالفوائد الباهظة على أن يحصلها منه في حالة تأخره عن السداد بقطع من لحمه الحي، ليجسد فيه خصال الشر والتآمر وحب المال، ورغم أنها صورة مسرحية درامية بالغة السخرية، فإنها توضح نظرة المجتمع للتجار والمرابين اليهود، فقد تشكلت في العقلية الجمعية للإنسان الأوروبي وفي الخيال الشعبي ملامح شخصية المرابي اليهودي بشكل ساخر، كرجل يعكف على اكتناز الأموال وجمعها بأي ثمن، معتمدًا على الخسة والخديعة والمكر والدهاء.

يقول المرابي اليهود شايلوك في أحد مقاطع الحوار المسرحي:

"أكرهه فهو مسيحي، ويزيد كراهيتي له

إقراض المال بلا ربح ضعة منه وغفلة

مما يخفض سعر الفائدة على الأموال

في هذي البلدة

يا ليت الفرصة تسنح لي فأفاجئه في لحظة ضعف

كي أطعم ذاك الحق الراسخ منه فأتخمه

لمَ يكره شعب الله المختار؟

لمَ يهجوني وسط التجار؟

لمَ يسخر من صفقاتي.. من حرصي..

من ربحي المشروع.. ويسميه ربا؟

فلتنزل بعشيرتي اللعنة إن سامحته "

تاجر البندقية – وليم شكسبير

ولم يكن شكسبير هو الكاتب الإنجليزي الوحيد الذي عبر عن اليهود بذلك الشكل القاسي، فقد لحقه الكاتب الروائي البارز تشارلز ديكنز، وذلك من

خلال شخصية "فاغن" في رواية "أوليفر تويست"، إذ صوره كزعيم عصابة متخصصة في سرقة الأطفال وتعليمهم السرقة والنشل، وكذلك تعليم الفتيات الأكبر سنًا البغاء، وغيرها من الأنشطة الإجرامية، وقد حرص ديكنز بشكل واضح، على أن يضيف لفظ "اليهودي" بشكل متكرر كلما ورد ذكر فاغن في الرواية.

ولنأخذ مثلا هذا المقطع الذي تقابل فيه أوليفر توسيت مع فاغن للمرة الأولى.

"وصعد جاك السلم وهو يقود وراءه أوليفر، وانتهيا منه إلى غرفة قذرة يضيئها قنديل ضئيل، وقد جلس فيها إلى مائدة الطعام يهودي عجوز متجعد الوجه بشع القسمات كث اللحية والشعر، خاف أوليفر واضطرب، وانتشله من ذهوله صوت جاك يقول:

أقدم لكما صديقي أوليفر تويست، فضحك اليهودي العجوز ضحكة القردة وقال: يسرنا أن نراك بيننا يا سيد أوليفر، تعال قاسمنا الطعام، لا بد أنك جائع.

فجلس إلى المائدة وهو لا يعي ما يفعل، ثم أخذ يبتلع اللقمة تلو الأخرى، ثم قدم له اليهودي كأسًا من الخمر، وطلب منه أن يشربها جرعة واحدة، ففعل، وارتمى بعد قليل على الفراش وغرق في سبات عميق".

أوليفر تويست – تشارلز ديكنز

ومن تجليات تلك الرؤية الشعبية الأوروبية أن قام التشكيليون والرسامون بالمبالغة في إظهار الأنف الطويل المعقوف، والظهر المنحني والأعين الماكرة، وسوء التكوين الجسماني، في تجسيد الشخصيات اليهودية، كعلامة على المكر والخداع.

أما عن سائر أنحاء أوروبا، فكان الاضطهاد على أشده، حيث حَرّمَت باريسُ الفكرَ اليهودي، بناءً على القانون الكنسي الذي صدر بعزل اليهود ومنع اختلاطهم بالمجتمع، وحُرِّقَت المخطوطات والكتب اليهودية، وعلى رأسها التلمود، وفي هولندا فُرضت ضريبة خاصة على كل طفل يهودي يبلغ اثني عشرَ عامًا، ليصبح اليهود من مصادر الدخل المهمة للخزانة الملكية.

وأُجبر اليهود في أنحاء مختلفة من أوروبا على ارتداء أزياء خاصة، كرقع صفراء على الملابس، أو قبعات حمراء، كنوع من التمييز والتحقير.

ولم يقتصر الأمر على العزل والتضييق، فقد رأى بعض الملوك في أوروبا أن اليهود عدو لهم، واعتبروا أنهم جواسيس ومخربون، وأنهم يتلاعبون بالاقتصاد الأوروبي ويتحدون سلطة الكنيسة.

وبدأ طرد اليهود من الدول الأوروبية تباعًا، بدءًا من إنجلترا، حيث أصدر الملك إدوارد الأول قرارًا بطرد اليهود 1290 ميلاديا، ثم تبعتها فرنسا في عام 1306 ميلاديا.

وزاد موقف اليهود سوءًا في منتصف القرن الرابع عشر، مع انتشار الموت الأسود (الطاعون - The black death) الذي فتك بأكثر من ثلث سكان أوروبا، وكان مرضًا غامضًا مجهول الأسباب سريع الانتشار، فشلت الطرق العلمية المتبعة في ذلك العصر في تحديد أسبابه ومعرفة طرق انتشاره أو علاجه، فلعبت العقلية الشعبية التي أصابها اليأس دورًا في تفسيره ومحاولة علاجه، فحاول البعض ربط ذلك المرض بالابتعاد عن الدين وعدم الإخلاص في اتباع تعليمات الكنيسة، وربطه الآخرون المرض بالسحر والأعمال الشيطانية، وأعدم على أثر تلك التفسيرات عدد كبير من الرجال والنساء الذين ظُنَّ أن لهم علاقة بتلك الممارسات السحرية، أو لهم علاقة بالهرطقة والإلحاد الذي كان سببًا في غضب الرب وعقابه، وفسر الآخرون ذلك المرض بأن له علاقة باليهود، خصوصا أنهم كانوا يعيشون في مناطق منعزلة ولا يختلطون كثيرًا بمن حولهم، فكانوا أقل تأثرا بالمرض من غيرهم، وسرت العديد من الإشاعات التي لاقت صدى في المجتمعات المسيحية التي تبحث عن خلاص من تلك اللعنة المرضية المميتة، خلاصة تلك الشائعات أن اليهود يقومون بتسميم آبار الشرب ومصادر المياه، وأنهم يمارسون السحر انتقامًا من اضطهاد الكنسية لهم، وقد بني ذلك الاعتقاد استنادا على ممارسة بعض اليهود طقوسا صوفية غامضة تسمى "الكابالا קַבָּלָה".

ومن الملاحظ أن هناك تقاربًا شديدا بين الآداب اليهودية التي تشرح حال المصريين القدماء، بعد أن تسلطت عليهم الأوبئة والأمراض، انتقامًا من الرب، عندما رفضوا خروج اليهود مع موسى، وحال الأوروبيين وقد ضربهم الطاعون وفتك بجلودهم ولحومهم وأهدر حياتهم. وفي تطور مثير للأحداث تم القبض على عدد من التجار اليهود في سويسرا، وعُقِدَت محاكمتهم بتهمة نشر الطاعون، واعترفوا تحت وطأة التعذيب وقسوته بارتكابهم تلك الجرائم، وسرى ذلك الاعتراف في كل أنحاء أوروبا كالنار في الهشيم المحترق، فاستشرت الهجمات الوحشية على الأحياء اليهودية، وقُتل وعُذِّبَ منهم الكثير، واتخذ الأوروبيون اليهود كبشَ فداء يتم التضحية به، ربما يساعدهم ذلك في التخلص من الطاعون ويرفع عنهم المرض والابتلاء.

واللافت في الأمر أنه بعد انتهاء ظاهرة الطاعون لم يتوقف ذلك الاضطهاد، بل زاد، إذ تم إجبار اليهود في ألمانيا على استخدام أبواب بعض المدن المخصصة للحيوانات في الدخول والخروج، وحرموا من دخول بعض المدن

الأخرى، وفي مدينة فرانكفورت كان لا يصدر للطائفة اليهودية إلا اثنا عشر تصريحا بالزواج طوال العام.

وقد وصف الملك فريدريك الثاني في كتابه "العهد السياسي" اليهود قائلا:

"اليهود أخطر الطوائف جميعًا، فهم بخلاء يؤمنون بالخرافات ومتأخرون، إنهم جماعة تقف في طريق التقدم العام للجنس البشري".

العهد السياسي – فريدريك الثاني

ومع زيادة الضغط والاضطهاد اضطر العديد من اليهود من للهرب من إنجلترا وفرنسا وألمانيا، والبحث عن أوطان جديدة بأوروبا الشرقية، كبولندا وأوكرانيا ورومانيا، حيث عاشوا في حالة من الرخاء، وسُمح لهم بممارسة شعائرهم والاحتفال بأعيادهم، وأصبحت بولندا مَعقِلا جديدا لليهودية، واستلهموا من زي النبلاء البولنديين الزي المميز لبعض الطوائف اليهودية المتشددة حتى عصرنا الحديث "البالطو الأسود الطويل، القبعة السوداء، الحذاء الأسود".

وقد سُمى يهودُ أوروبا الشرقية وألمانيا باليهود الأشكناز، ولا يجب الخلط بينهم وبين يهود الشرق الأوسط وآسيا وإفريقيا "العراق، لبنان، اليمن، سوريا، باكستان، اثيوبيا، السودان وغيرها" الذين يُطلق عليهم المزراحيون.

واستمر عيش اليهود في بولندا فترة طويلة، ورغم الحفاوة والترحاب ورغد العيش الذي قوبلوا به في البداية، فإنهم انخرطوا مع النبلاء وعملوا في جباية الضرائب وتحصيل الإيجارات، واستخدموا في ذلك القسوة والشدة، فنظر لهم المزارعون والطبقات العاملة نظرة حقد وكراهية، حتى تفاقمت الأوضاع في مدينة كراكاو، وأسفر الاحتقان بين اليهود والنبلاء من ناحية وبين العمال والمزارعين من ناحية أخرى عن أعمال شغب تطورت لثورة شعبية، وقُتِلَ من اليهود أعدادٌ كبيرة، وهرب منهم الكثيرُ، ودمر ما يزيد على ثلاثمئة قرية ومجتمع يهودي في بولندا وأوكرانيا.

ونتيجة لحالة الشتات التي عاشوها طويلا، ابتكر اليهود تقنيات عديدة تساعدهم على الهرب والنجاة من الجموع الغاضبة ومن الجيوش المتوعدة، وذلك بأقل قدر من الخسائر الممكنة، فكانوا يحولون أجزاءً كبيرة من ثرواتهم لأنواع من الحجارة الكريمة، وبالأخص الماس، كبديل آمن يسهل حملُهُ ونقله وتهريبه من مكان لآخر.

ويُذكر أنه في القرن السابع عشر استلهم العديد من الفنانين مواقف وحكايات من العهد القديم، ونماذج من الشخصيات اليهودية بشكل أكثر تعاطفًا عما استلهمه الفنانون من قبل، فقام الرسام الهولندي الشهير رامبرانت بتنفيذ مجموعة من لوحاته المشهورة كبورتريهات لشخصيات

يهودية، ولعل أشهر تلك اللوحات "العروس اليهودية"، كما استلهم في لوحات أخرى عديدة شخصيات توراتية كأبرام وإسحاق وشمشون ودليلة وملاك الرب، كما رسم المسيح وبعضًا من حكاياته وأصحابه.

ولم تتحسن أحوال اليهود إلا بشكل نسبي مع بداية عصر النهضة وظهور حركات التنوير والإصلاح في أوروبا، حيث بدأت الإصلاحات تأخذ شكلا أكثر جدية وصلابة، عقب قيام الثورة الفرنسية 1789، وإقرار مبادئ الثورة "الحرية، الإخاء، المساواة"، التي تدعم حقوق الإنسان والمواطنة، وقد ساهم في تحسن أوضاع اليهود الصراع الكبير الذي حدث بين قادة الثورة الفرنسية ورجال الدين والكنيسة، إذ اعتبر قادة الثورة الفرنسية رجال الدين أعداءً للثورة، وحاولوا الحد من دورهم وتقليص صلاحيتهم عن طريق فصل السلطة الدينية عن إدارة الدولة، وقد نجحوا في ذلك بعد مقاومة شديدة، فأصدر قادة الثورة الفرنسية القانون الذي عُرف باسم "الدستور المدني لرجال الدين" في 12 يوليو 1790 ميلاديا، والذي تخضع بموجبه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في فرنسا للحكومة الفرنسية، وصُودرت ممتلكات الكنيسة ومُنعت النذور وصارت الدولة تدفع للقساوسة رواتبهم وتدعم الطقوس الكنسية الكاثوليكية، وعلى الجانب الآخر، سُمح لليهود والبروتستانت بممارسة شعائرهم دون أي دعم من الدولة.

وقد واكبت تلك الحركة التحررية حركة تنويرية علمانية يهودية، بدأت في ألمانيا على يد الفيلسوف موسى مندلسون، سميت حركة التنوير أو الهاسكالا، ودعت لاندماج اليهود مع المجتمعات الأوروبية على أسس علمانية قائمةٍ على التسامح والتحرر من التبعية، والحصول على الحقوق والواجبات الكاملة على أساس المواطنة.

ولذلك فقد اعتبر العديدُ من اليهود موسى مندلسون "موسى الثالث"، امتدادا للنبي موسى وموسى بن ميمون، وكان من إنجازات موسى مندلسون ترجمة العهد القديم للألمانية.

ورغم تطور العقلية الأوروبية بشكل عام، والعقلية اليهودية بشكل خاص، في نهايات القرن الثامن عشر، فإن أوروبا ما لبثت أن غرقت في حالة من النزاعات القومية والتحيز العرقي مرة أخرى بسبب انتشار الحروب والنزاعات المسلحة، الأمر الذي عاد باليهود مرة أخرى للجيتو الخاص بهم، وزاد الاحتقان بعد مقتل القيصر الروسي ألكسندر الثاني 1881 ميلاديا، وثبوت تورط امرأة يهودية في ذلك الاغتيال، ما أدى لاندلاع أعمال فوضى وتدمير راح ضحيتها عدد ضخم من اليهود.

ولم يجد اليهود مخرجًا من هذه الأزمة الشديدة إلا بمغادرة القارة الأوروبية العجوز، والبحث عن الأمل في القارة الأمريكية الجديدة التي فتحت ذراعيها لاستقبال المهاجرين من شتى جنسيات ودول العالم، باختلاف مذاهبهم وأعراقهم، فكانت هجرات ضخمة في القرن التاسع عشر، وخصوصا من اليهود الأشكناز الذين ينتمون لألمانيا وروسيا، وفي القارة الأمريكية كان اليهود أكثر انفتاحًا وتقبلا للآخر، وأكثر رغبة في الاندماج والذوبان، كأنهم فقدوا ميراث العداء للشعوب الأخرى الذي حملوه معهم طوال تاريخ وجودهم بأوروبا، فتخلوا عن الكثير من عاداتهم وممارساتهم القديمة، بل وتخلصوا من عاداتهم المظهرية التي كانت تميزهم عن باقي الأعراق، فحلقوا لحاهم وغيروا قصات شعرهم المميزة، بل لقد سمح بعضهم لنسائهم بالعمل في المصانع والمزارع، في سابقة اعتبرت فارقة في تاريخ اليهود، وكانت تلك الهجرات والاندماج الذي صحبها نواة لعلاقة يهودية أمريكية مميزة، ألقت بظلالها على الجماعات اليهودية في أنحاء العالم المختلفة.

أما عن الذين تمسكوا بوجودهم في القارة الأوروبية، فقد كانت الأجواء مهيأة لطرح حل جديد لحالة الشتات اليهودي من خلال إحياء فكرة قديمة لم تمت مع الزمن، وهي فكرة العودة للأرض المقدسة مرة أخرى، كوطن قومي لليهود يحمل أبعادًا دينية وعقائدية، ومع تعالي تلك الدعوات بدأ ظهور مصطلح جديد وهو "الصهيونية"، وهو المصطلحُ الذي ظهر للمرة الأُولى على يد الكاتب اليهودي الألماني ناثان برنابلوم سنة 1893 ميلاديا، ككلمة مشتقة من اسم جبل صهيون الذي يقع في القدس، ويعنى المصطلح إجمالا العودة والحنين للقدس، وظهرت بذلك الحركة القومية اليهودية الجديدة "حركة الصهيونية العالمية".

وبعد أن كان اليهود، طوال فترة بقائهم في أوروبا، واقعين دائمًا بين رحى صراع ما كفاعل أو مفعول به، أو خليط من الأمرين، أصبح لهم هدف جديد، يسعون لتحقيقه مهما كان الثمن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



السيف الصهيوني والدرع الحمراء

" من الذي سيدعم اليهود في هذه الحرب؟ "

ربما دار ذلك النوع من الأسئلة، بصيغة أو بأخرى، في أذهان العديد من قادة الدول الأوروبية ومفكريها ورجال سياستها، مع كل حرب أوروبية في التاريخ المتوسط والحديث.

فاليهود مجموعة ذات طابع خاص، تتسم بالذكاء والحيلة، ولديها من الموارد الاقتصادية والتنظيمية والشبكات المعلوماتية ما يجعلها حليفًا قويًّا في أي معركة، وخصمًا لا يستهان به على الإطلاق، وكان هذا النوع من الأسئلة طبيعيًّا جدًا بسبب طبيعة اليهود الخاصة، وعدم وضوح ولائهم لما حولهم.

ويبدو أن حالة الخلط على المستويات الشعبية والرسمية حول انتماء اليهود وهويتهم، قد أدت للوصول لتلك النتيجة المركبة، فهل يتم التعامل مع اليهود كطائفة دينية متفرقة بين البلاد، تحمل جنسيات مختلفة، مع احتفاظهم بالولاء للدول التي تحتويهم؟ أم أنهم شعب له خصوصية مستقلة ورؤية كاملة وتوجهات أساسية يسعى إلى تحقيقها، بصرف النظر عن الحدود الجغرافية، ولا ينتمي إلا لنفسه ولأفكاره؟ أم أنهم لا يعنيهم الانتماء للدين والجنسية، ويتعاملون باستقلاليةٍ وفق مصالحهم الخاصة وطبيعة المرحلة والمكان الذي يعيشون فيه؟

وكان لليهود ميل كبير للتخصص في الأعمال الإستراتيجية المربحة، ونجحوا على مر العصور في السيطرة على عدة أنواع من الأنشطة التجارية الهامة، كالذهب والعبيد وتجارة العملات والماس والحرير، وكذلك الإقراض بفوائد، والذي سُمي بنظام الربا، وقد حاول ملوك أوروبا السيطرة على هذه الأنشطة بطرق مختلفة، ولكنهم فشلوا، فكانوا يضطرون إلى طرد اليهود وإجلائهم للحفاظ على سيادتهم وسيطرتهم على موارد بلادهم.

في البداية كانوا يصدرون عدة قوانين تحرم على اليهود ممارسة أنشطة معينة، وكذلك تحرم على أثرياء اليهود استخدام عاملات مسيحيات في منازلهم، حتى لا يتم تشغيلهن في الدعارة أو التجسس، وعندما تفشل تلك القوانين في تحقيق أهدافها يلجأ قادة الدول لطرد اليهود من بلادهم.

فقد قام الملك إدوارد الأول، فور توليه حكم إنجلترا، بإصدار مرسوم يحرم على اليهود ممارسة الربا، سنة 1272 ميلاديا، ثم أصدر مرسومًا آخر، بموافقة البرلمان، سنة 1275 ميلاديا، بتحديد الأنشطة التي يمارسها اليهود، ولكن، رغم كل هذه القرارات، شعر الملك إدوارد أن أنشطة اليهود ما زالت خارج السيطرة، فأصدر قرارًا هامًا بطرد كل اليهود خارج إنجلترا، وسميت تلك

المرحلة "بالإجلاء الكبير" لأنه سرعان ما صدرت قرارات مماثلة من باقي الدول الأوروبية، كفرنسا وهنغاريا وبلجيكا والنمسا وإسبانيا وإيطاليا والبرتغال، ولم يكن خروج اليهود من تلك البلاد سهلا، بل كان مصحوبا بأعمال شغب وعنف وغضب شعبي عارم، وارتبط ذلك الغضب بتاريخ اليهود النشط في جباية الضرائب، وكذلك محاولة العديد من المدينين، من النبلاء والطبقات الشعبية، استغلال الفرصة في التخلص من ديونهم دون تسديدها.

ورغم كل تلك الخسائر الفادحة وعمليات الطرد الموسعة، فقد كانت لليهود قدرات تنظيمية وتخطيطية ساعدت على بقائهم وتمكينهم من مجال المال والأعمال والتجارة، وكان المثال الأبرز على ذلك هو عائلة روتشيلد، التي قال في وصفها الشاعر الألماني هاينريش هاينة "المال سيد عصرنا وآل روتشيلد رسله".

وعائلة روتشيلد هي عائلة يهودية نافذة أسسها التاجر اليهودي "أمشل ماير باور" الذي بدأ حياته مفتتحًا محلا للصرافة بفرانكفوت بألمانيا، ثم مع الوقت أسس مصرفه الخاص، وقام بتغير اسمه إلى روتشيلد Roth Schild ، وروتشيلد كلمة ألمانية تعني الدرع الحمراء، وهو الشعار الذي اتخذه لنفسه ولتجارته وعلقه على باب قصره، وقد بدأ سريعًا في تغيير وجهة استثماره للمال إلى إقراض الحكومات بدلاً من إقراض الأفراد، بضمان الضرائب التي تحصلها تلك الحكومات، وسرعان ما امتد النشاط البنكي لعائلة روتشيلد في العواصم الأوروبية الكبرى، حيث كان لروتشيلد خمسة أبناء بدأوا في توسيع استثمارات العائلة، فظل الابن الأكبر في فرانكفورت، واتجه الابن الثاني - سولمان إلى فيينا، واتجه الابن الثالث - ناثان إلى إنجلترا، والابن الرابع - كارل إلى إيطاليا، والخامس - جايكوب إلى باريس، مؤسسين فروعًا جديدة، وسرعان ما نمت تلك الفروع حتى أصبحت البنوك الرئيسية في بلادها، وكانت لها حصص رئيسية في الصناعات الهامة، كالحديد والصلب والقاطرات والسفن والأدوية والصناعات الحربية وكذلك الإعلام، ما مكنهم من الهيمنة المالية المحكمة على الاقتصاد الأوروبي.

وينسب لعائلة روتشيلد فكرة السندات المالية، وتعتمد فكرة السندات على تشجيع الأغنياء على إيداع أموالهم وذهبهم في البنوك على هيئة ودائع، وفي المقابل يحصلون على سندات بقيمة تلك الودائع، وقد انتشرت هذه الفكرة بشكل واسع، فكان أصحاب الذهب يضعون السبائك كأمانةٍ في خزائن البنوك، ويحصلون على إيصالات بتلك الودائع، وتعتبر تلك الإيصالات بمثابة العملة الورقية التي يستخدمونها في التداول بدلاً من العملات الفضية والذهبية ثقيلة الحمل صعبة التداول، وأدى نجاح تلك الفكرة إلى حصول عائلة روتشيلد على كميات هائلة من الذهب، ومع نجاح الفكرة وانتشارها بدأت

عائلة روتشيلد في ترسيخها بشكل أكبر، وشجعوا الدول على أن تطور طبيعة تداولها الاقتصادي باعتماد مخزون الذهب معادلاً لمخزون الاحتياط النقدي، وقد كانت إنجلترا هي أول دولة تعتمد" معيار الذهب" كمؤشر للاحتياط النقدي، وتلتها دول أخرى، ما غير شكل الاقتصاد في العالم وعدل موازين قوته، وكان ذلك التغيير يصب بشكل مباشر في مصلحة عائلة روتشيلد، اعتمادا على مخزونهم الهائل من الذهب، وسيطرتهم على صناعته وتجارته وحتى استخراجه.

ولا يمكن، بأي حال من الأحوال، فصل الاقتصاد ورأس المال عن الصراعات العسكرية والسياسية التي كانت تدور في أوروبا أو خارجها، حتى وإن اتخذت ستارا قوميًا أو دينيًا، فقد كان الصراع على الموارد والكنوز الطبيعية والمعدنية، هو السبب الأول والمحرك الرئيس لأغلب الحروب التي عرفها التاريخ.

كانت الحروب التوسعية والاستعمارية، التي تخوضها الإمبراطوريات الأوروبية الكبرى، بيئة صالحة لزيادة ثروات آل روتشيلد وتنمية استثماراتهم، وخصوصا مع تخصصهم في الإقراض للحكومات والملوك.

ولا يوجد عميل مناسب لمانحي القروض أكثر من دولة محاربة، إذ تزداد حاجتها لتمويل الحملات العسكرية وشراء الأسلحة وتعويض خسائر الحرب، وكلما طالت فترة الحرب زادت القروض وانتعشت استثمارات عائلة روتشيلد، وذلك ما دفعهم إلى تشجيع الحكومات المتحاربة على مختلف توجهاتها على الاقتراض من مصارفهم بفوائد باهظة، فتضاعفت ثرواتهم بشكل متسارع، وتمكنوا من التحكم بسهولة في سوق الأسهم والسندات، وفرض شروطهم المالية على الدول الأوروبية.

ولعل القصة التي أُشيعت حول ناثان روتشيلد، وكيف استغل شبكته المعلوماتية الواسعة في الاستفادة من معركة ووترلو عام 1815 ميلاديا لصالحه، عن طريق التلاعب بسوق الأسهم والسندات الإنجليزية - دليل على ذلك.

فقد أشيع أن ناثان علم بهزيمة نابليون بونابرت في المعركة وانتصار الجيش الإنجليزي، وقبل أن ينتشر الخبر أسرع ببيع سنداته وأسهمه في البورصة الإنجليزية، ما أوحى لجميع المستثمرين أنه حصل على معلومة استباقية من شبكة اتصالاته الموسعة، تفيد بهزيمة إنجلترا، وأن سوق المال يوشك على الانهيار، وأنه قد هرع للبيع ليحاول تقليل خسائره، فأصيب الجميع بالفزع وبدأت عمليات البيع بشكل موسع وانخفضت قيمة الأسهم والسندات بشكل

ضخم، وحققت البورصة خسائر فادحة، بينما كان هو يقوم سرًا بإعادة شراء كل الأسهم والعقارات المطروحة للبيع بثمن بخس، محققًا مكاسب هائلة.

وعلى الرغم من عدم القدرة على التحقق من صحة هذه القصة، فإنه من الثابت أن ناثان روتشيلد هو الممول الأكبر للحكومة البريطانية في حربها ضد نابليون، وأن بنوك عائلته الأخرى كانت تحذو بالمثل في تمويل الحكومات والدول الأوروبية المتحاربة الأخرى.

بل إن بعض فروع العائلة كانت تقوم بتمويل طرفي المعركة المتحاربين، فيمول أحد بنوك روتشيلد إحدى الدول المتحاربة، بينما يمول فرع آخر لبنوك روتشيلد الدولة المعادية في نفس الحرب، فتجني ثمار النصر مع المنتصر، وتتربح من خسائر المهزوم، وتستمر في إقراضه بفوائد ضخمه، ما يمكنها من إحكام سيطرتها عليه.

وبذلك تتحول ويلات الحرب وصراعها الدموي إلى عائدات تتدفق لحساب الفوائد الخاصة بالقروض، لصالح بنوك آل روتشيلد العالمية، وساهمت تلك العوائد في تمكينهم من احتكار مخزون الذهب الأوروبي لصالحهم، وتحويله إلى سندات خزانة.

ومن الأمثلة الواضحة على الاستفادة المزدوجة من خصمي الحرب الواحدة، من جانب عائلة روتشيلد، "الحرب الفرنسية الألمانية" عام 1870 ميلاديا، والتي مَوَّلَت فيها عائلة روتشيلد الجانب الألماني الذي كان يطمع في تأسيس إمبراطورية ألمانية، وفي حكم إسبانيا التي كان عرشها شاغرا بعد خلع الملكة إيزابيلا الثانية، في أعقاب الثورة الإسبانية، في مقابل ذلك التمويل قام الألمان بطرح عُملة جديدة مكفولة بالذهب، وهو ما كان في السابق قد لقي معارضة شديدة في ألمانيا، وعقب نهاية الحرب قدم آل روتشيلد قرضًا كبيرًا لفرنسا في سبيل إعادة إعمار ما خلفته الحرب من تدمير، وكذلك دفع التعويضات التي ألزمتهم بها اتفاقية السلام لصالح ألمانيا، لتجني عائلة روتشيلد ثمار انتصار ألمانيا التي مولتها في الحرب، وثمار هزيمة فرنسا التي أقرضتها لتعوض خسارتها الحربية.

وكذلك مولت عائلة روتشيلد حربي الأفيون الأُولى والثانية التي شنتها إنجلترا ضد الصين، بهدف إجبار الحكومة الصينية على السماح ببيع الأفيون للشعب الصيني، فقد كانت إنجلترا تعتبر الصين سوقًا هامة لتجارة الأفيون، وتسيطر عليها بشكل رسمي ومعلن، عبر شركاتها الملاحية، وهو ما منعته حكومة الصين، حيث شكل خطرًا عليها وإهدارًا لمواردها وثرواتها، وتأثيرًا سلبيًا مدمرًا على شعبها، فأصدرت قرارات واتخذت إجراءات من شأنها تجريم تجارة الأفيون، واستيراده، ومنع بيعه وتعاطيه، وكرد فعل لهذه الإجراءات

قامت إنجلترا بالتدخل عسكريًّا وأجبرت الحكومة الصينية على فتح أسواقها لتجارة الأفيون واستيراده بمقابل الذهب، وتم تحويل هونج كونج لمستعمرة إنجليزية وهو ما كفل تحويل كل ثروات الصين للخزانة الإنجليزية، التي كانت العائلة اليهودية تسيطر بشكل محكم عليها.

ولم يتغير الوضع كثيرا في حرب البوير التي شنتها القوات الإنجليزية لتوحيد مستعمراتها في جنوب إفريقيا "الكاب وناتال وجمهورتي البوير" وإنشاء اتحاد فيدرالي يعرف بجنوب إفريقيا للسيطرة على مناجم الذهب، وقد نجحت في ذلك في عام 1903 م، وبسطت سيطرتها بالكامل على تلك المناطق.

ويذكر التاريخ أيضا أن الخديوي إسماعيل حاكم مصر كان يكثر من الاقتراض بمبالغ طائلة من بنك روتشيلد الإنجليزي، وعندما عجز عن سداد تلك القروض وفوائدها المتراكمة اضطر إلى بيع حصة مصر من أسهم قناة السويس، وكانت 44% من إجمالي الأسهم، لتسديد بعض من تلك الديون.

وكما دفعت عائلة روتشيلد الخديوي إسماعيل للبيع عن طريق ديونه المتراكمة، كان لها دور كبير في عملية الاشتراء، حيث أعطت الحكومة الإنجليزية قرضًا مباشرًا لتمويل صفقة الاشتراء.

وبنمو الإمبراطورية البريطانية ونمو الشركات التجارية التي تعمل تحت مظلتها، كشركة الهند الشرقية، وتوَسُّع أنشطتها الاحتكارية في نقل ثروات الهند والصين وباقي دول آسيا، تضخمت ثروات عائلة روتشيلد، وكذلك نما نفوذها حتى أصبحت العائلة الأغنى والأكثر قوة في القرن التاسع عشر على الإطلاق.

والجدير بالملاحظة أن عائلة روتشيلد، كما كانت تستفيد من الدول المتعثرة عن طريق الإقراض، كانت تستفيد كذلك من النمو الاقتصادي للدول الغنية، فكان ذلك النمو يصب في مصلحتها بشكل مباشر؛ فالنمو الاقتصادي يجب أن تصحبه زيادة في الكتلة النقدية -إصدار نقود ورقية جديدة، وطرحها للتداول - وتلك الزيادة لا يمكن أن تحدث إلا بمعادلة قيمة النقود بالذهب "زيادة معيار الذهب" لضمان التوازن الاقتصادي، ما يضطر تلك الدول لاشتراء الذهب من عائلة روتشيلد، لتضمن استمرار نموها الاقتصادي.

ورغم هذا الدور الضخم الذي لعبته عائلة روتشيلد، وغيرها من العائلات اليهودية الكبرى، في تمويل الحروب الدائرة داخل أوروبا، وتمويل الحروب الاستعمارية خارجها، فقد كان لليهود دورٌ آخر في تلك الحروب أكثر وضوحًا، فمن المعروف أن أعدادًا كبيرة من اليهود كانت تشارك في الحروب الأوروبية بصفتها جنودا ومواطنين بالدول المتحاربة، طمعًا في تحسن مراكزهم وتوطيد صلتهم بتلك الدول وشعوبها، فكانوا يحملون السلاح ويرفعون أعلام

الدول التي يقطنونها، ويبذلون النفس والدم في سبيل إعلاء راياتها وتحقيق انتصارها.

لكن ميراث العداء ونظرة الشك والريبة التي تحملها الشعوب الأوروبية تجاه اليهود كانت كفيلة بإفساد محاولات الاندماج، فلم ينل اليهود الثقة الكافية كجنود وقادة، كما حدث للضابط اليهودي الفرنسي "ألفريد دريفوس" في أثناء الحرب بين فرنسا وألمانيا، حيث اتهم بالخيانة العظمى (التجسس لصالح الألمان) فقبض عليه عام 1894 ميلاديا، وتمت محاكمته ونفيه وتجريده من رُتَبِتِهِ العسكرية، في مدة لا تزيد على شهرين، وظلت تلك المحاكمة السريعة مثار جدل في الأوساط الفرنسية واليهودية، فاتخذها البعض رمزًا ودلالة للتعبير عن خيانة اليهود وانعدام أمانتهم، واتخذها البعض الآخر رمزًا ودلالة للتعبير عن اضطهاد اليهود ومعاداتهم، حتى لو ارتدوا الملابس العسكرية وقدموا أرواحهم في ميدان المعركة.

وبعد صراع حقوقي وقانوني طويل، أُعيدت محاكمة الضابط دريفوس، إثر ظهور أدلة جديدة، عام 1899 ميلاديا، ولكن لم تبرأ ساحته للمرة الثانية، وعاد للسجن مرة أخرى، وانتهى المطاف بدريفوس بأن صدر عنه عفو من الرئيس الفرنسي "إميل لوبيه" وعاد لمنصبه في الجيش واستمر في الترقي حتى أصبح قائدًا على أحد الحصون الدفاعية لباريس خلال الحرب العالمية الأُولى، وظلت تلك الحادثة راسخة في الأذهان، وكان لها أثر بالغ في الفكر اليهودي وعلاقته بالمجتمع الأوروبي، بل إنها كانت إحدى الضربات القاضية التي وجهت لدعاوى التنوير والاندماج "الهاسكالا" التي نادى بها بعض اليهود، بهدف تقليص الفجوة بينهم وبين الشعوب الأخرى.

وكما كان لليهود تمثيل في الجيش الفرنسي، كان لهم تمثيل أيضًا في الجبهة المعادية، فَخِلال الحرب العالمية الأولى تطوع أكثر من عشرة آلاف يهودي في الجيش الألماني بناءً على طلب الاتحاد المركزي اليهودي ومنظمة اليهود الألمان، وشارك هؤلاء الجنود في الحرب، وكان بعضهم في الجبهات الأمامية وعلى خطوط النار الرئيسية، لكن ذلك الامتياز وتلك الثقة لم تستمر طويلا، فما إن بدا أن الألمان يخسرون الحرب حتى سرى الشك في نفوس قادة ألمانيا تجاه ولاء هؤلاء اليهود وإخلاصهم، فشرعوا في سحبهم من الخطوط الأمامية، واضطهدهم زملاؤهم وعاملهم الضباط بقسوة وخشونة، واستمرت تلك المعاملة السيئة مع توالي الهزائم الألمانية، وتبلور مع هزيمة ألمانيا، في نهاية الحرب، تعبير جديد في وصف موقف اليهود، أطلقته الأوساط اليمينية الألمانية المتشددة وهو "الطعنة في الظهر Dolchstoßlegende" ليعبر عن خيانة اليهود للألمان في الحرب، وانتشر ذلك المصطلح بشكل واسع.

وروجت التيارات اليمينية الألمانية أن الجيش الألماني لم يهزم عسكريًا، بل تمت خيانته من الداخل في تحالف من اليهود البلشفيين واليهود الرأسماليين، وظلت تلك التهمة كغيمة تحلق فوق رأس الشعب اليهودي، رغم محاولات إدماجهم في المجتمع بعد الحرب، فقد ظل التيار اليميني الألماني متربصًا باليهود حتى سنحت الفرصة للانتقام، وذلك مع تصاعد الفاشية الألمانية وقيام الجمهورية الفاشية عام 1933 ميلاديا، فساءت أوضاع اليهود وزاد التنكيل والاضطهاد، ما اضطر أكثر من 37000 من اليهود الألمان إلى الهجرة خوفًا على أرواحهم ومصالحهم، والعدد القليل الذي تبقى قامت الميليشيات غير الرسمية للحزب النازي، التي عرفت بكتيبة العاصفة، بالتضييق عليه ومضايقته، رافعة شعارات معادية لليهود:

"أيها الألمان دافعوا عن أنفسكم ولا تشتروا من اليهود"

واستمرت حدة التضييق والتعذيب في التصاعد، وألقيت أعداد كبيرة من اليهود في معسكرات الاعتقال، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وسقوط ألمانيا في يد الحلفاء، فتم الإفراج عنهم.

وكما كانت مشاركة اليهود في الحروب الأوروبية المشتعلة تتم على نسقين اجتماعيين متباينين -النسق الأول فئة النبلاء والأثرياء التي تُدير الحروب وتستفيد من ثرواتها وويلاتها، والنسق الثاني فئة الطبقة المتوسطة والفقيرة التي تشارك بدمائها وأجسادها في الحرب، وتتعرض لنيران الأعداء، واضطهاد وشَكِّ رفاق السلاح- كان الواقع الفكري والسياسي اليهودي إزاء تلك الأحداث يسير في اتجاهين متباينين أيضا.

الاتجاه الأول يُعرف بحركة التنوير "الهسكالا" وهي كلمة مشتقة من "سيكيل" بمعنى "نور" باللغة العبرية، ومن اشتقاق هذا الاسم سُمي معتنقوها التنويريين، ويقصد بالهسكالا الحركة التي بدأت عام 1750 على يد المثقف اليهودي موسى مندلسون - كما أشرنا سابقا - ثم انتشرت في جنوب ألمانيا منتصف القرن التاسع عشر، وامتدت حتى وصلت لكلٍّ من النمسا وبولندا وروسيا، وتهدف تلك الحركة إلى إخراج اليهود من عزلتهم التاريخية والتفاعل مع المجتمعات التي يعيشون بها، والاندماج معها، متخليين عن الفكر القومي اليهودي، متخذين فكرًا جديدًا يدعو إلى الانتماء للدول والثقافات التي يعيشون تحت لوائها، مع احتفاظهم بحقوق المواطنة الكاملة، وحقوق ممارسة شعائرهم الدينية.

وللشاعر اليهودي يهودا ليف جوردن، في قصيدته "استيقظ يا شعب"، مقطع هام يعبر عن أفكار تلك الحركة ورؤيتها:

"Be a Jew at Home and a Man on the Street"

" كن يهوديًّا في بيتك.. إنسانًا خارج بيتك "

ليعبّر في ذلك المقطع عن أن اليهود قد بدأوا تدريجيًّا في التخلص من سيطرة الحاخامات على مقاليد الأمور، وفضلوا السلطة المدنية والقانون، فقد اتجه كثير من اليهود لتعليم أبنائهم في مدارس مدنية منفتحة خارج أسوار الجيتو، متأثرين في ذلك بتيار الإصلاح الديني البروتستانتي الذي بدأ في أوروبا في القرن السادس عشر، تمردًا على سلطة وحكم الكنيسة الكاثوليكية، ثم أصبح مذهبًا دينيًّا مسيحيًّا مستقلاً.

وفى تلك المرحلة تمت ترجمة العهد القديم إلى اللغة الألمانية، وكذلك أُعيد تفسيره ونشره بفكر معاصر، وكذلك جعلوا الأدعية والصلوات بلغات البلاد التي يسكنون فيها، وأصبحت اليهودية بالنسبة للتنويريين عبارةَ عن دينٍ وعقيدة، وليست جنسية ولا انتماء سياسيًا.

ويبدو لأول وهلة أن هذه الإجراءات قد تضر بالثقافة العبرية وباللغة العبرية، وتهمشها، إلا أن هذا لم يكن صحيحًا، فقد ساعدت تلك الإجراءات على الحفاظ على اللغة العبرية، التي أخذت لعهود طويلة في الانقسام على نفسها نظرًا لتشتت جماعات اليهود في بلاد مختلفة "لغة توراتية تراثية، عبرية السفارديم، عبرية الأشكناز، عبرية المزراحية"، وظهر شكل متطور من تلك اللغة عُرف باللغة "العبرية الحديثة"، وصدرت العديد من الصحف باللغة العبرية، مثل "هيلمتس، هيتسوفيه، هشيلوح". ومع مرور الوقت بدأت حركة التنوير تأخذ أشكالا أكثر تحررًا في التعامل مع التراث الديني اليهودي ونقده، فأصبحت فكرة المخلص "المسيح اليهودي" الذي يأتي آخر الزمان ليقود الشعب لأرض الميعاد محلاً للتقييم والنقد، وحلت محلها فكرة أخرى تدعو لاعتماد اليهود على أنفسهم ومجهودهم البشري "عقليا وبدنيا" بدلا من انتظار ما يحمله الغيب، ما غير تمامًا نظرة اليهود ورؤيتهم لأنفسهم وللعالم من حولهم، وأصبحوا لا ينتظرون حلا دينيا ينقذهم من مشكلاتهم، أو مخلّصا من السماء يعيدهم إلى أرض ميعادهم.

فكان ذلك الاستقلال الفكري والثقافي سببًا رئيسيًا في تطوير الصراع الذي أدى إلى عودتهم إلى فلسطين لاحقا، وهو ما لم يكن في الحسبان من أصحاب ذلك التيار الذي يتسم بالعلمانية منذ بدايته.

أما التيار الثاني، فهو التيار القومي اليهودي الذي عُرف باسم "الحركة الصهيونية Zionist "

وهي الحركة التي جنت الثمار الأولى للثورة الفرنسية، عندما اعترفت فرنسا باليهود كمواطنين في وثيقة إعلان الحقوق الفرنسية عام 1789، ثم جنوا بعد ذلك ثمرة الثورة الصناعية بأن نقلوا أعمالهم للمدن الصناعية في مجموعات

متماسكة، ما سهل اختراقها والسيطرة عليها، وكذلك السيطرة على قطاعات المال والأعمال المختلفة، كما استفاد القوميون من الحركة التنويرية "الهسكالا" بالانفتاح على ثقافة وعلوم الآخرين، والتحلي بالصبغة المدنية بجانب الصبغة الدينية في المظهر اليهودي؛ في عصر العلم والصناعة.

ويعتبر الكثير من الباحثين أن بذره القومية الأُولى خرجت من رحم حركات التنوير، التي فككت حالة الجمود الديني ودفعت اليهود للتفكير بحلول عملية لمشكلاتهم الحياتية الملحة، واستمر الفكر التنويري في النمو والتغير حتى تحول إلى الصهيونية، والحركة الصهيونية تهدف في الأساس إلى إنشاء كيان سياسي وجغرافي لليهود "دولة" لإنهاء حالة التشتت والاغتراب التي يعيشها اليهود منذ طردهم من أرض الميعاد.

ويعتبر الصحفي اليهودي النمساوي ثيودور هيرتزل أبا الصهيونية ومؤسسها الفعلي، وأول من اتخذ خطوات عملية من أجل تعريفها ونشر هويتها، إذ أصدر كتابًا بعنوان الدولة اليهودية Der Judenstaat عام 1886، يدعو لإنشاء وطن قومي لليهود في مكان مناسب من العالم، ويدعو لهجرة أو تهجير اليهود من البلاد التي استقروا فيها إلى ذلك الوطن، كما يدعو كل يهود العالم للحشد والتعبئة لهذه الرؤية.

ورغم أن العديد من النقاد والباحثين في البداية اعتبروا هيرتزل في كتابه "الدولة اليهودية" يؤسس لعالم خيالي "يوتوبيا"، أو اعتبروا كتاباته نوعًا من الخيال الأدبي غير القابل للتحقيق، فإن الكتاب يمثل بالفعل رؤية شاملة وواضحة لمجموعة الخطوات العملية التي يجب أن يقوم بها اليهود في تأسيس دولتهم، وقد تم تنفيذ معظم ما جاء في الكتاب بشكل كامل لاحقًا.

وقد جاء المقطع التالي في تصدير الكتاب ليعبر عن نبوءة هيرتزل

"إنني على يقين تام أنني على حق، وإن كنت أشك فيما إذا كنت سأبقى حيًا لأرى الأيام تبرهن على ذلك، أما أولئك الذين سيكونون أول من يفتتح هذه الحركة فمن النادر أن يبقوا على قيد الحياة ليشهدوا نهايتها العظيمة، ولكن افتتاحها في حد ذاته يكفي لمنحهم الشعور بالفخر والسعادة بالتحرر الروحي".

الدولة اليهودية، هيرتزل

وقد دعم الحركة الصهيونية عاملان: أولهما موجات الاضطهاد العنيفة التي لاقاها اليهود، خصوصا في ألمانيا وروسيا، الأمر الذي دفع الكثير من اليهود للتفكير في الهرب من أوروبا، والتفكير في وطن بديل ومستقل.

أما العامل الثاني فيرجع لنمو الروح القومية والنزعات العنصرية في دول أوروبا، مع تصاعد وتيرة الصراعات والحروب بين الشعوب الأوروبية المختلفة، ما كان له تأثيره على اليهود في إحياء قوميتهم والبحث عن جذورهم.

ويجب أن نلاحظ أن الحركة الصهيونية في البداية قد لاقت مقاومة عنيفة من عدة تيارات في المجتمع اليهودي، فقد حاربها رجال الدين على أنها حركة علمانية تهدف لتقويض سلطة الدين وهدم ركائزه، وكذلك عارضها العديد من أثرياء اليهود خوفًا على مصالحهم واستثماراتهم في أوروبا، وحفاظا على صورتهم كرعايا مخلصين ينتمون للبلاد التي يعيشون فيها، ويستثمرون رءوس أموالهم، وأدت تلك المقاومة لانقسام الحركة الصهيونية في بدايتها لقسمين رئيسيين، كل يعمل وفقًا للفكر القومي اليهودي ولكن بشكل مختلف.

القسم الأول يرى أن يحافظ اليهود على قوميتهم واستقلالهم الفكري والديني، مع العمل على اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون بها في أوروبا، حفاظًا على المكاسب التي حققوها طوال سنين الشتات والاغتراب، معتبرين الحركة الصهيونية حصنًا للهوية وعقلا منظمًا لليهود في شتى دول العالم، بصرف النظر عن مكان وجودهم.

والقسم الثاني، يرى أنه يجب البحث عن وطن بديل، بعيدًا عن سيطرة الإقطاع والبرجوازية الأوروبية، وقد طرحوا في البداية عدة دول تصلح لأن تكون وطنًا بديلاً مثل أوغندا وغانا والأرجنتين، على أساس وفرة موارد المياه ووجود الأراضي الصالحة للزراعة، والاستثمار، ولكنهم استقروا في النهاية على فلسطين التزاما بنصوص العهد القديم.

وقد كان هيرتزل في كتاباته ورؤيته الأولى، غير حاسم بشأن اختيار فلسطين كوطن قومي لليهود، ولهذا دلالة واضحة على أن الحركة الصهيونية في جوهرها كانت حركة علمانية غير ملتزمة بتعاليم الكتاب المقدس، بقدر التزامها بالبحث عن البديل الأفضل لحل مشكلات اليهود التي يعانون منها نتيجة للاغتراب.

"هناك الآن منطقتان موضوعتان في الاعتبار: فلسطين والأرجنتين، ففي كلا البلدين هناك تجارب استعمارية هامة، ولكن على أساس مبدأ خاطئ من التسلل التدريجي لليهود، وهو تسلل من شأنه أن ينتهي نهاية سيئة. "

الدولة اليهودية، هيرتزل

"هل نختار فلسطين أم الأرجنتين؟ إننا سنأخذ ما يعطى لنا، وما يختاره الرأي العام اليهودي، وسوف تقرر الجمعية كلا الأمرين."

الدولة اليهودية، هيرتزل

"أما فلسطين فإنها وطننا التاريخي الذي لا تُمحى ذكراه، إن اسم فلسطين في حد ذاته سيجتذب شعبنا بقوة ذات فاعلية".

الدولة اليهودية، هيرتزل

وقد حاول هيرتزل في البداية العمل بطريقة مباشرة للحصول على موافقة السلطان العثماني، عبد الحميد الثاني، على إقامة دولة لليهود في فلسطين، أو على الأقل إلغاء القوانين التي تحد من هجرة اليهود إليها بصفته خليفة المسلمين، وحاكم الدولة العثمانية التي تقع فلسطين ضمن حدودها، لكنه فشل في ذلك، فاتجه إلى طريق آخر، إلى الدول الأوروبية الكبرى، محاولا إقناعها بمساعدته وتبني قضيته، ولكنه فشل مرة أخرى، ورغم حالات الفشل المتكررة ورغم حالة التشتت بين التيارات اليهودية المختلفة، لم ييأس، واتخذت رؤيته منحنى جديدًا قائما على أساس خلق تكتل يهودي موحد، يتفق على اتخاذ خطوات عملية، ويشكل قوة ضاربة تفرض نفسها على الواقع السياسي العالمي، لتحقق مطالبها وأغراضها، فقرر الدعوة إلى عقد مؤتمر عام للم شمل اليهود، وتقريب وجهات النظر، وذلك عام 1897 ميلاديا، والذي عرف باسم "المؤتمر الصهيوني الأول"، وعرف أيضًا "بمؤتمر بازل"، وكانت المفارقة أن بعض التيارات اليهودية خذلته وحاولت تعطيل مساعيه، فقد بدأ هيرتزل التحضير لهذا المؤتمر، بنية أن يعقد في ميونخ بألمانيا، لكن التيارات اليهودية المعارضة للصهيونية قاومت ذلك الانعقاد بشدة، كما رفضته "رابطة رجال الدين اليهود" بألمانيا، ووصفته الصحف اليهودية الألمانية بأنه مؤتمر العار والخيانة، فكان من المستحيل أن يعقد هناك، وما كان من ثيودور هيرتزل، بصفته رئيسَ المؤتمر، إلا أن قرر نقل مقر انعقاده إلى بازل بسويسرا، ودعا كل زعماء اليهود ومفكريهم من جميع أنحاء العالم، وحضر بالفعل مئتان من اليهود البارزين، يمثلون خمس عشرةَ دولة.

وبعد عدد من المداولات والاجتماعات التي استمرت خلال الفترة من 29 إلى 31 أغسطس، توصل المؤتمر لقرار أساسي تمت صياغته في العبارة التالية...

"إن غاية الصهيونية هي خلق وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام"

كما وضع برنامج تنفيذي عُرف باسم "برنامج بازل الصهيوني"، ولخص البرنامج في عدة نقاط أساسية قليلة الكلمات، لكنها غزيرة المعاني وبالغة الدقة والتحديد:

• تعزيز الاستيطان في فلسطين باليهود المزارعين، والحرفيين، والمهنيين، وبناء على قواعد صالحة.

• تنظيم اليهود كافّةً، وتوحيدهم بواسطة إنشاء المؤسسات المحلية والعامة الملائمة، وفقًا للقوانين السارية في كل بلد.

• تقوية الشعور اليهودي القومي والضمير القومي.

• اتخاذ الخطوات التحضيرية للحصول على موافقة الحكومات، التي يجب الحصول عليها، لتحقيق هدف الصهيونية.

ونلاحظ أن الكلمات الأساسية التي يدور حولها برنامج بازل هي "تعزيز، تنظيم، تقوية، اتخاذ"، ما يلفت النظر إلى أن تلك القرارات سوف تصحبها، على المدى القصير، خطوات تنفيذية سريعة وعملية، وهو ما كان بتأسيس "المنظمة الصهيونية العالمية"، وانتخاب هيرتزل رئيسًا لها، ثم إقرار النظام الداخلي للمنظمة وهيكلها التنظيمي وشروط العضوية التي تمنح لكل يهودي في العالم يلتزم ببرنامج بازل، ويدفع اشتراكا سنويًّا يسمى "شيكل"، وهو نفس اسم العملة التي كان يتداولها العبرانيون القدامى. وأقر مؤتمر بازل شكلَ العلم الصهيوني (نجمة داود) ونشيدًا قوميًّا للدولة.

وبدأت هجرات اليهود المنتظمة إلى فلسطين، وخصوصا من روسيا وأوروبا الشرقية، وكونوا مجتمعات زراعية عرفت بالكيبوتس، وكان من أبرز ممولي تلك المجتمعات البارون "إدموند روتشيلد".

وبذلك استل اليهود سيف الصهيونية لمهاجمة كل من يقف في طريق أطماعهم، كما كان لهم درعًا حمراء منيعة تحملها عائلة روتشيلد لتحمي ظهورهم وتهون عليهم المصاعب.

"لا يصح لنا أن نأخذ رمحًا وحربة ونخرج فرادى وراء الدبة، بل ينبغي أن ننظم مجموعة قوية من الصيادين، فنسوق الحيوانات لنجمعها في مكان واحد ثم نقذف في وسطهم قنبلة مدمرة".

الدولة اليهودية، هيرتزل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



بريطانيا... ثلاثة وعود وجائزة واحدة

الثامن والعشرون من يوليو 1914، هو التاريخ التي أعلنت فيه الإمبراطورية النمساوية المجرية الحربَ على صربيا؛ ردًّا على اغتيال ولي عهد النمسا "فرانز فرديناند" على يد طالب صربي في سراييفو، وظن الجميع أنها ستكون حربًا صغيرة وسريعة، ربما تستمر لعدة أيام أو أسابيع أو حتى شهور، وكان من المتوقع أن تجتاح القوات النمساوية مملكة صربيا في نزهة عسكرية قصيرة، لكن ما حدث لم يكن في الحسبان، فقد كان العالم على حافة الاشتعال وينتظر الشرارة المناسبة، وبدأت حرب عظمى لتستمر لأربع سنواتٍ متواصلة، لترسم خارطة جديدة للقارة الأوروبية على أنقاض أوروبا القديمة، بعد انهيار الإمبراطوريات العتيقة وسقوط التحالفات وتفكك كبرى العائلات الأرستقراطية والسلالات الحاكمة لأوروبا، والتي فرضت سيطرتها منذ العصور الوسطى وما قبلها.

سُمِّيَت تلك الحربُ في البداية "الحربَ العظمى The great war"، ولم يتم تغييرُ ذلك الاسم إلا بعد قيام حرب مناظرة لها بعد سنوات عديدة "الحرب العالمية الثانية"، لتسمى "الحربَ العالمية الأولى"، وشاركت فيها الدول الكبرى في أوروبا في ذلك الوقت طوعًا أو كراهية، فبعد إعلان النمسا الحربَ على صربيا؛ قامت روسيا مباشرة بإعلان الحرب على النمسا، وبدأت دائرة الصراع في التوسع تدريجيًّا، حيث سارعت ألمانيا بإعلان الحرب على روسيا لتحجز مكانًا مميزًا في دائرة الصراع، فالإمبراطورية الألمانية هي القوة الجديدة المتصاعدة في أوروبا، ولها أطماع توسعية داخل القارة الأوروبية، وأطماع أخرى في تكوين مستعمرات خارجها، وكانت قد بدأت مسبقًا في تكوين مستعمرات خارجية متفرقة، لكنها لم تكن بحجم ولا بأهمية المستعمرات البريطانية والفرنسية، وإزاء الموقف الألماني بإعلان الحرب سارعت بريطانيا وفرنسا في الاشتراك بالحرب بموجب التحالف بينهما وبين روسيا، وكذلك بدافع الخوف من التوسع الألماني الذي أصبح يهدد نفوذهما؛ بعد أن نجحت ألمانيا في السنوات السابقة في بناء أسطول حربي ضخم، وسيطرت على العديد من الممرات المائية الهامة، وتورطت أيضا الإمبراطورية العثمانية في تلك الحربِ إلى جانب دول المحور، التي تتزعمها ألمانيا في مواجه دول الحلفاء التي تتزعمها بريطانيا.

وكانت بداية الحرب قاسية وعنيفة ومخيبة لآمال للجانب الروسي والبريطاني؛ حيث قُطعت خطوطُ الاتصال الروسية، وهُزمت القواتُ الروسية في مواقع كثيرةٍ، وسيطرت ألمانيا على البلقان وعبرت القوات الألمانية نهر الدانوب وكَبَّدَت بريطانيا وفرنسا خسائرَ جسيمة، وأغرقت العديد من السفن الحربية والتجارية الإنجليزية.

وكانت الحرب العالمية الأولى تشهد تطورًا كبيرًا في الأسلحة والمعدات الحربية، وتكتيكات القتال، فقد ظهر الطيران الحربي لأول مرة في التاريخ مهيمنا على سماوات المعركة، وملقيا بالرعب والموت والفزع على العسكريين في مواقع القتال، والمدنيين في مدنهم التي لم تعد آمنة.

وظهرت المدرعات والدبابات المقاتلة التي تجوب ميادين القتال وتكتسح الجنود والخيول في طريقها، وظهر ما يُسمى بحروب الخنادق، التي تعتمد على تمركز الجنود على طول جبهة القتال في خنادقَ متقابلةٍ مع تبادل إطلاق الرصاص والمدفعية، دون التورط في اشتباكات مباشرة كما كان يحدث في السابق، وأدى ذلك النمط العسكري الذي يتميز بالبُطْءِ، واستمرار المواجهات لفترات طويلة دون حسم، إلى تطوير أنواع جديدة من الأسلحة كالغازات السامة المشتقة من مواد كيماوية.

وكانت المؤشرات كلها تصب في اتجاه ألمانيا ودول المحور، في ظل التفوق الميداني والعلمي الملحوظ لصالح الألمان، وزادت من احتمالات النصر الألماني قيام ثورة عنيفة على الأراضي الروسية، عرفت بالثورة البلشفية، أدت لانشغال الروس بشأنهم الداخلي، ما دفعهم إلى الانسحاب من الحرب، الأمر الذي استغلته ألمانيا لزيادة الضغط العسكري على بريطانيا وفرنسا، فانهارت جيوشهما بشكل درامي غريب، ما شجع ألمانيا لفرض حصار بحري شديدٍ على بريطانيا، بهدف تجويعها، مستخدمة الغواصات الألمانية التي كانت متطورة في ذلك الوقت، ولكن يبدو أن ذلك الحصار المحكم قد أدى لارتكاب ألمانيا خطأً إستراتيجيًّا كبيرًا غَيَّرَ مسار المعركة.

فقد أغرقت البحرية الألمانية، عن عمد، العديد من السفن التجارية الأمريكية المتجهة إلى بريطانيا، بهدف منع الشحنات الموجودة عليها من الوصول للأراضي البريطانية، ما كان أحد الأسباب التي دفعت الولايات المتحدة للخروج عن مبدأ الحياد الذي اختارته منذ بداية الحرب، هذا إلى جانب الضغط المستمر من رجال المال والأعمال الأمريكيين، وإدارات المصارف، على حكومة الولايات المتحدة الأمريكية للمشاركة الحرب، بهدف حماية استثماراتهم في دول الحلفاء وأوروبا، خصوصا بعدما أقرضت المصارف الأمريكية حُكومتي فرنسا وبريطانيا مبالغَ ماليه طائلةً لتمويل الحرب، وأصبح من المتوقع فقدان تلك الأموال في حالة هزيمة الحلفاء.

وأعلنت أمريكا الحرب، وبدأت في إرسال قواتها وتحريك أساطيلها البحرية لنجدة بريطانيا وفرنسا، ومهاجمة ألمانيا ودول المحور، ما خلق توازنًا جديدًا لم يكن في الحسبان.

وكانت بريطانيا اليائسة قد استخرجت أقوى سلاح في ترسانتها، وهو سلاح الدهاء والمكر السياسي الذي استغلته ليلعب دورًا هامًا في تحويل دفة الصراع، فبدأت في عقد الاتفاقيات والتحالفات لضمان نجاتها بعد الحرب.

وأخيرًا، أثمرت الجهودُ العسكرية على جبهة القتال، والجهود السياسية على طاولة المفاوضات، بهزيمة دول المحور واستسلام ألمانيا، وأجبر الحلفاءُ القيصرَ الألماني على تقديم استقالته بعد أن رفض الحلفاء التفاوض معه قبل توقيع معاهدة الصلح، وتفككت الإمبراطورية الألمانية، وسقطت في مجاهل الغياب، وحل محلها نظام جمهوري سمي "الجمهورية الألمانية الأولى"، ولم تكن ألمانيا هي الإمبراطورية الوحيدة التي سقطت في نهاية الحرب، فكانت الحال كذلك بالنسبة للإمبراطورية الروسية التي سقطت أمام الانتفاضة البلشفية المسلحة بقيادة فلاديمير لينين، ورفيقه جوزيف ستالين، في أكتوبر 1917، الذي سمي بأكتوبر الأحمر، وما زالت ذكرى تلك الثورة تعتبر مناسبةً قوميةً في روسيا إلى الآن، حيث بدأت روسيا حقبه جديدة، وهي الحقبة الشيوعية، التي استمرت حتى بداية التسعينات، وتركت بصماتها على العديد من دول العالم.

وكذلك اختفت كُل من الإمبراطورية النمساوية المجرية، والإمبراطورية العثمانية، واستعادت العديد من الدول والمستعمرات استقلالها، وتغيرت تبعية بعض الدول لمستعمر على حساب البعض الآخر، وظهرت العديد من الدول ذات الحدود الجديدة التي لم يكن لها وجود من قبل.

ولم تقتصر المعاناة والتغيير في أعقاب الحرب على الدول المهزومة فقط، فحتى الدول المنتصرة قد لاقت قدرًا كبيرًا من التغييرات الاجتماعية والاقتصادية الجسيمة، وكذلك فقد اختل التوازن السكاني لتلك الدول، وتناقصت قوى الإنتاج والأيادي العاملة، وغرقت كُلّ من بريطانيا وفرنسا في الديون، وحدثت حالة من التضخم المالي والكساد الاقتصادي، وتراجع مركز أوروبا كقوة اقتصادية وسياسية في العالم لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، التي كانت مليئة بالثروات المادية والبشرية.

وكذلك لعبت الحربُ العالمية الأُولى دورًا هامًا في تشكيل المنطقة العربية وإعادة صياغتها، وبخاصة العراق والشام وفلسطين، بسبب السياسات التي انتهجتها بريطانيا حتى تستطيع أن تواصل الحرب وتخرج منتصرة.

وهو ما يجب أن نتوقف قليلاً أمامه وننظر له بشيءٍ من الفحص والتحليل؛ فقد كانت بريطانيا تواجه تفوقًا جويًّا ملحوظًا لسلاح الجو الألماني، وكان المدنيون يئنُّون من القصف الجوي للطيارات المقاتلة، كرعب هابط من السماء للمرة الأولى في تاريخ البشرية، وكانت البوارج الحربية الألمانية

والغواصات المقاتلة تحرم بريطانيا من المؤن الغذائية والإمدادات الطبية، وتفرض عليها حصارًا اقتصاديًّا موجعًا.

وكان من المنطقي أن تحاول بريطانيا نقل الصراع بعيدًا عن أرضها، بفتح جبهات جديدة تخفف الضغط على جبهتها المركزية، وكانت الدولة العثمانية المتهالكة هي الحلقة الأضعف في حلقات الصراع، والمرشح الأول للضغط عليه وتحويل دفة المعركة تجاهه، كما كان وضعها مغريًا لبريطانيا؛ نظرًا لامتلاكها أجزاء كبيرة من الشرق الأوسط "العراق، سوريا، لبنان، فلسطين" وهي أراضٍ ذات أهمية إستراتيجية وجغرافية هامة، بجانب خصوبتها الشديدة وكثرة مواردها، كما كانت بريطانيا في حاجة لأن تضمن اكتساب المزيد من الحلفاء في تلك الحرب، وتضمن إخلاص وصلابة التحالفات القائمة حتى النهاية، وهو الأمر الذي دفعها لإطلاق ثلاثة وعود لثلاثِ جهات مختلفة، تتعلق بمنطقة الشرق الأوسط وآسيا الصغرى، بما يضمن تحقيق أغراضها، حتى وإن تضاربت الوعود.

وعلى الرغم مما بدا عليه الأمر من سوء التخطيط والعشوائية، فإن الحقيقة لم تكن كذلك على الإطلاق، فقد كانت بريطانيا سيدة العالم واللاعبةَ الأكثر حنكة في مجال السياسة والدهاء، وقد استطاعت بمهارة فائقة أن تُصَنِّفَ أعداءَها وأصدقاءها وتستثمر أحلامهم ورغباتهم وأطماعهم لصالحها، ببراعة ودقة لا مجال فيها للصدفة ولا الخطأ.

كانت خلفية الصراع بين بريطانيا والدولة العثمانية "رجل أوروبا المريض" قديمة، نجحت خلالها بريطانيا عبر سنوات طويلة في أن تنزع من الدولة العثمانية العديد من الولايات الهامة كمصر وقبرص، ثم استغلت تورط الدولة العثمانية في حرب عنيفة ومكلفة مع الإمبراطورية الروسية عام 1877 في إحكام الخناق حول الدولة العثمانية وتقويض سلطتها، ما شَجَّعَ العديد من الدول على أن تثور ضد الدولة العثمانية وتخرج عن سيطرتها، كدول البلقان والبوسنة والهرسك.

ثم اعتبرت بريطانيا السلطان العثماني، عبد الحميد الثاني، خطرًا داهمًا على التوسعات والمستعمرات البريطانية، ليس بشخصه وجيوشه فحسب، ولكن بمنصبه كخليفة للمسلمين الذي يكسبه مكانة روحية ودينية كبيرة، قد يستغلها لإعلان "الجهاد المقدس" ضد الإنجليز/الصليبيين أعداء الدين، ما سيتسبب في عاصفة من التمرد والثورات تعصف بالمستعمرات الإنجليزية التي تضم ملايين الرعايا المسلمين، وخاصة في الهند والصين ومصر والسودان، ويَضعف مركزُ بريطانيا.

ولم يكن الحلّ سهلاً حتى أدركت بريطانيا أنها بحاجة لمنازعة خليفة المسلمين في سلطته الدينية والسياسية، واستعانت بكل خبرتها وحلفائها، فاحتضنت فرنسا، الحليف الأبرز لبريطانيا في ذلك الوقت، المؤتمر الأول لحزب الاتحاد والترقي المنشق على الخلافة العثمانية، بعد أن طرده السلطان عبد الحميد الثاني ونفى معظم أعضائه عام 1889 ميلاديا، ما مكن الحزب من مزاولة أنشطتهِ بحرية، واستطاع أعضاء الحزب استغلالَ إلغاء السلطان للدستور وجمعه لمقاليد كل السلطات في يده، في إثارة الرأي العام داخل تركيا وتأليبه ضد السلطان، وكذلك في تكوين حركة سرية تهدف إلى إقامة حياة دستورية نيابية، قائمة على أسس إسلامية، تعتمد على مبدأ الشورى بدلاً من حكم الفرد المستبد، وهو ما جذب العديد من الشباب الأتراك، وبخاصة ضباط الجيش من الرتب الصغرى، للانضمام لها، ما ضَيَّقَ الخناقَ حول رقبة السلطان ومَهَّدَ لحدوث انقلابٍ في مايو 1908، أجبر السلطانَ على العمل بالدستور مرة أخرى، وساهم في تولي حزب الاتحاد والترقي الحكم، حتى عزلوا السلطان عبد الحميد نهائيا في أبريل 1909.

وظلت الدولة العثمانية في حالة من التخبط والتفتت تحت قيادة حزب الاتحاد والترقي، وساهمت تلك الحالة كثيرا في إضعافها خلال الحرب العالمية الأُولى، وكانت جاهزة لتَلَقِّي الضربة القاضية تمهيدًا لخروجها مهزومةً وممزقةً من الحرب.

وأسفرت كل هذه الظروف عن الوعد الإنجليزي الأول مقدمًا للعرب، وتحديدًا عرب الحجاز وشبه الجزيرة العربية بقيادة" الشريف حسين بن علي" الذي وجدت فيه بريطانيا حليفًا مناسبًا ضد الأتراك، يحظى بمكانه دينية وقبليه تؤهلهُ كقائد للتمرد العربي ضد الدولة العثمانية، ونجحت بريطانيا في التوصل إلى شكل من أشكال التفاهم والاستقطاب للشريف حسين وأبنائه، بما يضمن ولاءَه لبريطانيا، ويدفعه لتكوين جيش عربي من رجال القبائل، مقابل وعد غير محدد المعالم بتكوين دولة عربية مستقلة تحت قيادته.

وتم ذلك عن طريق مجموعة من المراسلات بين الشريف حسين بن علي والسير آرثر هنري مكماهون، المبعوث السامي البريطاني في مصر في عامي 1915 و1916، وملخص تلك المراسلات أن بريطانيا ستعترف بمملكة عربية مستقلة، مقابل مشاركة عرب الحجاز في الحرب ضد الدولة العثمانية.

وبعرض مقتطفات من تلك المراسلات، ندرك كيف كان الجانب العربي متسرعًا وغير واضح الهدف والخطة، ولا يمتلك من الذكاء السياسي ولا المهارات التفاوضية ما يؤهله لعقد اتفاق بهذه الأهمية والخطورة، بعد أن عانى لعقود طويلة من وطأه الحكم العثماني وتضور جوعًا وظلمًا، بينما كان

الجانب البريطاني شديد الخبرة بالغ الدهاء، مشجعًا فيما يخص الثورة، ضبابيًّا فيما يخص التزاماته ووعوده.

فنجد رسالة موجهة في بداية المفاوضات من الشريف حسين للسير هنري، بتاريخ 14 يوليو 1915، يحاول فيها تحديد منطقة الاستقلال العربي ورسم خريطة واضحة للاتفاق، لكن الشريف حسين قطع مبكرًا كل خيوط الضغط والتفاوض، بأن أوضح حاجةَ شعبهِ للمعونة المصرية السنوية من القمح والشعير، وكذلك أوضح أن بريطانيا هي الشريك الوحيد للعرب، وأنهم لا يبحثون عن خيارات أخرى، وكذلك صرح بأن بريطانيا ليست في حاجة لبذل أي جهد لإقناع الشعوب العربية في شبه الجزيرة بالتحالف معها، وهو ما أضرَّ بالتأكيد بموقفه وأضعفه بشدة.

وكان نص الرسالة كالتالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في 28/ رمضان سنة 1333 هـ (14/ يوليو سنة 1915م)

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر، سلمه الله.

أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتي الودية واحتراماتي، وأرجو أن تعملوا كل ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية.

وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم ولحكومتكم أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة.

ثم يجب ألا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب، لإلقاء المناشير وإذاعة الشائعات، كما كنتم تفعلون من قبل، لأن القضية قد قررت الآن.

وأني لأرجوكم هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية، لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضي المقدسة "مكة والمدينة" التي أوقف إرسالها منذ العام الماضي.

وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا العام، والعام الفائت، سيكون له أثر فعال في توطيد مصالحنا المشتركة، وأعتقد أن هذا يكفي لإقناع رجل ذكي مثلك أطال الله بقاءكم.

حاشية: أرجو ألا تزعجوا أنفسكم بإرسال أي رسالة قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا، خلا الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه.

ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول إليكم عندما نجد حاجة لذلك. والرسول موثوق به.

المذكرة: لما كان العرب بأجمعهم، دون استثناء، قد قرروا في الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظريا وعمليا بأيديهم. ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة، وهي الأماني المؤسسة على بقاء شرفهم، وكرامتهم وحياتهم.

ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزها الجغرافي، ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا.

إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربي أنه من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبيها أو ممثليها على الاقتراحات الأساسية الآتية:

أولاً: أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية من مرسين ـ أذنه، حتى الخليج الفارسي شمالاً، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقًا، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوبًا يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي ـ ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سيناء غربا.

على أن توافق بريطانيا أيضا على إعلان خليفة عربي على المسلمين.

ثانيًا: تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية بريطانيا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية، إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية.

ثالثا: تتعاون الحكومتان الإنجليزية والعربية في مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين، وذلك حفظا لاستقلال البلاد العربية، وتأمينا لأفضلية بريطانيا الاقتصادية فيها، على أن يكون هذا التعاون في كل شيء، في القوة العسكرية، والبحرية، والجوية.

رابعا: إذا تعدى أحد الفريقين على بلدة ما ونشب بينه وبينها عراك وقتال، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد. على أن هذا الفريق المعتدي إذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين أن يجتمعا معا وأن يتفقا على الشروط.

خامسا: مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة، وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام.

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق "والحمد لله" على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلبا أو إيجابا في خلال ثلاثين يوما من وصول هذا الاقتراح، وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جوابًا فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء.

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا ـ إذ لم يصل الجواب ـ أحرارا في القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي أفندي."

وقد رد عليه السير هنري مكماهون بتاريخ 30 أغسطس 1915 مرحبًا بشكل مبدئيٍّ بالاتفاق، ولكنه تهرَّبَ من فكرة رسم الحدود، وحاول أن يجعلها مبهمة وغير واضحة المعالم بمنتهى الذكاء والسلالة، مُبدِيًا أسبابًا تبدو وجيهةً للوهلة الأولى، ولكنها لا تمثل الموقف البريطاني الحقيقي.

وجاء نص الرسالة كالتالي:

" من السير هنري مكماهون إلى الشريف حسين

30 أغسطس 1915

إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رجال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين.

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة، نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص وشرف الشعور والإحساسات نحو الإنجليز. وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأي واحد وأن مصالح العرب هي نفس مصالح الإنجليز والعكس بالعكس. ولهذه النسبة فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التي وصلت إلى سيادتكم عن يد علي أفندي وهي التي كان موضحا بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها.

وإنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة.

وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها، وتصرف الأوقات سدى في مثل هذه التفاصيل في حالة أن الحرب دائرة رحاها ولأن الأتراك أيضا لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالا

فعليا وعلى الأخص ما علمناه وهو، مما يدهش ويحزن، أن فريقا من العرب القاطنين في تلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها، وبدل أقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة إلى الألمان، نعم مد يد المساعدة لذلك السلاب النهاب الجديد وهو الألمان، والظالم العسوف وهو الأتراك.

مع ذلك فإنا على كمال الاستعداد لأن نرسل إلى ساحة دولة السيد الجليل وللبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية، وستصل بمجرد إشارة من سيادتكم، وفي المكان الذي تعينونه. وقد عملنا الترتيبات اللازمة لمساعدة رسولكم في جميع سفراته إلينا ونحن على الدوام معكم قلبا وقالبا مستنشقين رائحة مودتكم الزكية ومستوثقين بعرى محبتكم الخاصة سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا.

وفي الختام أرفع إلى تلك السدة العليا كامل تحياتي وسلامي وفائق احترامي.

تحريرا في 19 شوال 1333

الموافق 30 أغسطس 1915

المخلص

السير آرثر مكماهون

نائب جلالة الملك".

فاضطر الحسين لإرسال رسالة أخرى تصاعدية اللهجة لحسم موقف بريطانيا في 9 سبتمبر 1915 من الحدود وجاء فيها:

"من الشريف حسين إلى السير مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في 29 شوال سنة 1333 (9 سبتمبر سنة 1915)

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر، سلمه الله

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ في 19 شوال، وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعوري بغموضه وبرودته وتردده فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية، أعني نقطة الحدود.

وأرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى، واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون وفي أي شكل، وفي

أية ظروف، ويجب أن أؤكد لكم أيضا أن مصالح أتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم.

ويعذرني فخامة المندوب إذا قلت بصراحة إن "البرودة" و"التردد" اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود، وقوله إن البحث في هذه الشؤون إنما هو إضاعة للوقت، وإن تلك الأراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها، ويعذرني فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا، أو على النفور أو على شيءٍ من هذا القبيل. فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب، بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد.

وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال، وهي بريطانيا العظمى.

وإذا أجمع هؤلاء على ذلك فإنما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك، وهم يرون أنه من الضروري جدًا أن يتم تنظيم الأراضي المجزأة ليعرفوا على أي أساس يؤسسون حياتهم كي لا تعارضهم بريطانيا أو إحدى حليفاتها في هذا الموضوع ما يؤدي إلى نتيجة معاكسة، الأمر الذي حرمه الله.

وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا ـ في تلك الحدود ـ مناطق يقطنها شعب أجنبي، بل هي عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها.

أما الخلافة فإن الله يرضى عنها، ويسر الناس بها.

وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة أنكم لا تشكون قط بأني لست أنا شخصيا الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا، بل هي مقترحات شعب بأسره، يعتقد بأنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية.

أو ليس هذا صحيحًا يا فخامة الوزير؟

وبالاختصار فإننا ثابتون في إخلاصنا نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا ـ كما قيل ـ أو غاضبين.

أما ما يتعلق في قولكم بأن قسمًا من شعبنا لا يزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصالح الأتراك، فلا أظن أن هذا يبرر البرودة والتردد اللذين شعرت بهما في كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود، الموضوع الذي لا أعتقد أن رجلاً مثلكم ثاقب الرأي ينكر أنه ضروري لحياتنا الأدبية والمادية.

وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الإسلامية في كل عمل أقوم به وأراه مفيدا وصالحا لبقية المملكة، وإني سأستمر في هذا إلى أن يأمر الله

في غير ذلك.

وأود هنا يا صاحب الفخامة أن أؤكد لكم بصراحة أن كل الشعب ـ ومن جملته هؤلاء الذين تقولون إنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا ـ ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود وقضية المحافظة على ديانتهم وحمايتهم من كل أذى أو خطر.

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقا لسياستها في هذا الموضوع فما عليها إلا أن تعلمنا به وأن تدلنا على الطريق التي يجب أن نسلكها.

ولذلك نرى أن من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب إليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها.

ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هي أأمن على مصالح بريطانيا من خطة بريطانيا على مصالحنا، ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلقل أفكارنا كما يقلق أفكارها.

وفوق هذا فإن الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء وقد يضطرونا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة، تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضرة.

وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة، وأنا أصرح بهذا رغم أني أعتقد وأؤمن بالتعهدات التي قطعتموها في كتابكم، ويستطيع معالي الوزير وحكومته أن يثقا كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التي عرفها مستر ستورس منذ عامين.

ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التي تناسب موقفنا، وبخاصة فيما يتعلق بالحركة التي أضحت قريبة والتي يدفعها إلينا القدر بسرعة ووضوح لنكون حجة ـ نحن والذين يرون رأينا ـ في العمل ضد تركيا ودون أن نتعرض للوم والنقد.

وأعتقد أن قولكم إن بريطانيا لا تحثكم ولا تدفعكم للإسراع في حركتكم مخافة أن يؤدي هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم، لا يحتاج إلى إيضاح إلا فيما يتعلق بمطالبكم بالأسلحة والذخائر عند الحاجة.

أعتقد الآن أن هذا الكفاية. "

فجاء رد مكماهون في 24 أكتوبر 1915 مراوغًا بشكل أكبر، إذ ألمح إلى أن أجزاء من فلسطين ليست عربية خالصة، كما ألمح إلى أن المعاهدة لا يجب أن تضر مصالح فرنسا، الحليفة الأهم لبريطانيا:

" من السير هنري مكماهون إلى الشريف حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فرع الدوحة المحمدية وسلالة النسل النبوي الحسيب النسيب دولة صاحب المقام الرفيع الأمير المعظم السيد الشريف بن الشريف أمير مكة المكرمة صاحب السدة العلياء جعله الله حرزًا منيعًا للإسلام بعونه تعالى وهو دولة الأمير الجليل الشريف حسين بن علي أعلى الله مقامه.

قد تلقيت بيد الاحتفاء والسرور رقيمكم الكريم المؤرخ بتاريخ 29 شوال سنة 1333 وبه من عباراتكم الودية المحضة وإخلاصكم ما أورثني رضاء وسرورًا.

إني متأسف أنكم استنتجتم من عبارة كتابي السابق أني قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور، فإن ذلك لم يكن القصد من كتابي قط، ولكني رأيت حينئذ أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث في ذلك الموضوع بصورة نهائية.

ومع ذلك فقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الهامة الحيوية المستعجلة، فلهذا فإني قد أسرعت في إبلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم، وإني بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التي لا أشك في أنكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول.

إن ولايتي مرسين وإسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال إنها عربية محضة، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة.

مع هذا التعديل، ودون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب نحن نقبل تلك الحدود.

وأما من خصوص الأقاليم التي تضمنها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف دون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا، فإني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية وأجيب على كتابكم بما يأتي:

1. إنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه، فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب، وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الأقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة.

2. إن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجوب منع التعدي عليها.

3. وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها وتساعدهم على إيجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الأقاليم المختلفة.

4. هذا وإن المفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وإرشادات بريطانيا العظمى وحدها وأن المستشارين والموظفين الأوروبيين اللازمين لتشكيل هيئة إدارية قويمة يكونون من الإنجليز.

5. أما من خصوص ولايتي بغداد والبصرة فإن العرب تعترف أن مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة.

وإني متيقن أن هذا التصريح يؤكد لدولتكم، دون أقل ارتياب، ميل بريطانيا العظمى نحو رغائب أصحابها العرب، وتنتهي بعقد محالفة دائمة ثابتة معهم ويكون من نتائجها المستعجلة طرد الأتراك من بلاد العرب، وتحرير الشعوب العربية من نير الأتراك الذي أثقل كاهلهم السنين الطوال.

ولقد اقتصرت في كتابي هذا على المسائل الحيوية ذات الأهمية الكبرى، وإن كان هناك مسائل في خطابكم لم تذكر هنا فسنعود إلى البحث فيها في وقت مناسب في المستقبل.

ولقد تلقيت بمزيد السرور والرضى خبر وصول الكسوة الشريفة، وما معها من الصدقات بالسلامة، وإنها بفضل إرشاداتكم السامية وتدابيركم المحكمة قد أنزلت إلى البر بلا تعب ولا ضرر رغما عن الأخطار والمصاعب التي سببتها هذه الحرب المحزنة، ونرجو الحق سبحانه وتعالى أن يعجل بالصلح الدائم والحرية لأهل العالم.

إني مرسل خطابي هذا مع رسولكم النبيل الأمين الشيخ محمد بن عارف بن عريفان، وسيعرض على مسامعكم بعض المسائل المفيدة التي هي من الدرجة الثانية من الأهمية ولم أذكرها في كتابي هذا. وفي الختام أبث دولة الشريف ذا الحسب المنيف والأمير الجليل كامل تحيتي وخالص مودتي، وأعرب عن محبتي له ولجميع أفراد أسرته الكريمة، راجيا من ذي الجلال أن يوفقنا جميعا لما فيه خير العالم وصالح الشعوب، إن بيده مفاتيح الأمر والغيب يحركها كيف يشاء ونسأله تعالى حسن الختام والسلام.

تحريرا في يوم الاثنين 15 ذي الحجة 1333.

نائب جلالة الملك

السير آرثر مكماهون "

وفي 5 نوفمبر 1915 رد الشريف حسين بقوله:

"تسهيلاً للوفاق، وخدمة للأمة الإسلامية، وقرارًا بما يكلفها المشاق والإحن، ولما لحكومة بريطانيا العظمى من الصفات والمزايا الممتازة لدينا، نترك الإلحاح في إدخال ولايات مرسين وأضنة في أقسام المملكة العربية. وأما ولايتا حلب وبيروت وسواحلهما فهي ولايات عربية محضة لا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فإنهما أبناء جد واحد".

ورد مكماهون في 13ديسمبر 1915 بقوله:

"سرني ما رأيت من قبولكم إخراج ولايتي مرسين وأضنة من حدود البلاد العربية.

أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة. ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهما فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق، وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب".

وفي 1يناير 1916 كتب الشريف حسين إلى مكماهون يقول:

"أما الجهات الشمالية وساحلها فيما كان في الإمكان من تعديل أتينا به في رقيمنا السابق. هذا، وما ذاك إلا للحرص على الأمنيات المرغوب حصولها بمشيئة الله تبارك وتعالى. وهذا الحس والرغبة هي التي ألزمتنا بملاحظة اجتذاب ما ربما أنه يمس حلف بريطانيا العظمى لفرنسا واتفاقهما إبان هذه الحروب والنوازل. إلا أننا مع هذا نرى من الفرائض التي ينبغي لشهامة الوزير صاحب الرياسة أن يتيقنها بأنه عند أول فرصة تضع فيها أوزار هذه الحروب سنطالبكم بما نغض الطرف عنه اليوم لفرنسا في بيروت وسواحلها".

وأجاب مكماهون في 10 مارس 1916:

"وقد يسرني أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم، وأن كل شيء رغبتم الإسراع فيه وفي إرساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا الرسالة".

واعتبر الشريف حسين هذه الرسائل، بشكلها السابق، اتفاقا نهائيًّا مع الحكومة البريطانية، وذلك رغم عدم وضوح الحدود الجغرافية للمناطق موضع التفاوض، وعدم وجود خرائط مفصلة تشرح جوانب الاتفاق، وكذلك كانت العديد من القضايا الجوهرية التي أثيرت غير محسومة بشكل واضح، كموقف فلسطين وأجزاء من الشام وموقف فرنسا من ذلك الاتفاق، وهي الحليف الإستراتيجي الهام لبريطانيا.

وأعلن الشريف الحسين في 2 يونيو 1916 الثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية، وقام عرب الحجاز، بقيادة ابنه الأمير فيصل بن الحسين، بمهاجمة

الخطوط الخلفية للجيش العثماني على طول المسافة من المدينة المنورة وحتى دمشق والعقبة، وكذلك قطع سكك حديد الحجاز التي كان يعتمد عليها الجيش العثماني في نقل المؤن والذخائر، كان ضابط الاتصال المسؤول عن هذه العملية هو "ت. س. لورانس"، وكان يتلقى الدعم والأسلحة من الجنرال إدموند اللنبي قائد القوات الإنجليزية في مصر.

واستغل الجنرال اللنبي تقدم القوات الحجازية، بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، وقام في 1917 بالاستيلاء على فلسطين، ثم انتصر على القوات العثمانية في موقعة مجدو 1918 ليحسم مصير الجبهة الجنوبية لصالح الإنجليز بشكل نهائي.

والجدير بالذكر أن عَلَمَ تلك الثورة العربية كان مُكَوَّنًا من الألوان: الأحمر والأبيض والأخضر والأسود، وهي الألوان التي ما زالت مصدرًا هامًا للعديد من أعلام الدول العربية حتى اليوم.

وقد قدمت السينما الأمريكية قصة الضابط لورانس عام 1968 في واحد من الأفلام التي اعتبرت ضمن قائمة أفضل الأفلام الأمريكية على مر التاريخ، وهو الفيلم الذي كان من إخراج المخرج البريطاني العالمي ديفيد لين، وبطولة بيتر أوتول وعمر الشريف، وأنتوني كوين، وتصور أحداث الفيلم الضابط الإنجليزي وهو يقود جيوش العرب، ويختار معاركهم، ويقدم النصح والمشورة للأمير فيصل في حربه ضد الترك.

أما الوعد الإنجليزي الثاني، فقد كان لحليفتها الكبرى وصديقتها اللدودة فرنسا، وكان وعدًا بين نظيرين مخضرمين في الحرب والسياسة، فكان أكثر تحديدًا ووضوحًا في الشكل والمضمون بعد فترة من المشاورات والرسائل المتبادلة، بين المبعوث الفرنسي جورج بيكو، والمبعوث البريطاني مارك سايكس، وسبقها لقاءٌ تمهيدي في القاهرة، تم خلاله فحصُ كلِّ الخرائط والوثائق الخاصة بالمنطقة العربية شرق المتوسط "خصوصا العراق والشام"، وبعدها تم التوصل لاتفاقية عُرِفَت فيما بعد باتفاقية "سايكس – بيكو"، ووقعت اتفاقية سايكس بيكو في مدينة سانت بيطرسبرغ الروسية عام 1916، حيث كانت روسيا القيصرية هي الشريك الثالث في الاتفاقية والشاهد عليها، ولكن لانهيار الإمبراطورية الروسية المفاجئ، بقيام الثورة البلشفية، لم تنل روسيا نصيبها المتفق عليه عند التوقيع.

وكانت الاتفاقية تنص على أن يتم تقسيم أراضي الإمبراطورية العثمانية، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، على الأطراف الثلاثة بشكل مرض، وهو أمر بالغ الصعوبة بسبب التنافس الاستعماري المحتدم بين بريطانياً وفرنسا منذ قرون، لكن ظروف الحرب والتحالف بين الدولتين حقق المعجزة ولو بشكل

مؤقت، وتم التوصل لصيغة تحصل بموجبها روسيا على الولايات الأرمينية في تركيا وشمال كردستان، وتحصل فرنسا على غرب سوريا ولبنان، وتحصل بريطانيا على العراق وميناء عكة ويافا، وباقي المناطق الأخرى تخضع لحكم ذاتي تحت إشراف فرنسي أو إنجليزي، ما عدا جُزءًا من فلسطين والقدس يخضع لإشراف دولي.

قد تم تنفيذ الاتفاقية بعد الحرب بشكل فعلي، مع بعض التعديلات التي جرت عليها في ديسمبر 1918، لتطابق بنود الاتفاقية مناطق النفوذ الفعلية على أرض الواقع، فقد حرص الجيش الإنجليزي في فرض نفوذه على الأراضي محل الاتفاق بشكل أكبر خلال الحرب والثورة العربية، وتم ترسيم حدود كل من لبنان وفلسطين والأردن والعراق بعد نهاية الحرب وانتصار الحلفاء.

وكانت اتفاقية "سايكس – بيكو" في اثني عشرَ بندًا.. كالتالي:

المادة الأولى:

إن فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية برئاسة رئيس عربي في المنطقتين "أ" (داخلية سوريا) و"ب" (داخلية العراق) المبينة في الخريطة الملحقة بهذا الاتفاق. يكون لفرنسا في منطقة (أ) ولبريطانيا في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية، وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وبريطانيا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية:

يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (سوريا الساحلية) ولبريطانيا في المنطقة الحمراء (منطقة البصرة) إنشاء ما ترغبان به من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو من المراقبة، بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة:

تنشأ إدارة دولية في المنطقة السمراء (فلسطين)، يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة.

المادة الرابعة:

تنال بريطانيا ما يلي:

- ميناءي حيفا وعكا.

- يضمن مقدار محدود من مياه دجلة والفرات في المنطقة (أ) للمنطقة (ب)، وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها بألا تتخلى في أي مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن جزيرة قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدمًا.

المادة الخامسة:

يُكَوِّنُ إسكندرون ميناء حرًّا لتجارة الإمبراطورية البريطانية، ولا تنشأ معاملات مختلفة في رسوم الميناء، ولا تفرض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية. وتباح حرية النقل للبضائع الإنجليزية عن طريق إسكندرونة وسكة الحديد في المنطقة الزرقاء، سواء كانت واردة إلى المنطقة الحمراء أو إلى المنطقتين (أ) و(ب) أو صادرة منهما.

ولا تنشأ معاملات مختلفة مباشرة أو غير مباشرة على أي من سكك الحديد أو في أي ميناء من موانئ المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية. تكون حيفا ميناء حرًا لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها، ولا يقع اختلاف في المعاملات ولا يرفض إعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسية، ويكون نقل البضائع حرًا بطريق حيفا وعلى سكة الحديد الإنجليزية في المنطقة السمراء (فلسطين)، سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء أو الحمراء، أو من المنطقتين (أ) و(ب) أو واردة إليها.

ولا يجري أدنى اختلاف في المعاملة بطريق مباشر أو غير مباشر يمس البضائع أو البواخر الفرنسية في أي سكة من سكك الحديد ولا في ميناء من الموانئ المذكورة.

المادة السادسة:

لا تمد سكة حديد بغداد في المنطقة (أ) إلى ما بعد الموصل جنوبًا، ولا إلى المنطقة (ب) إلى ما بعد سامراء شمالاً، إلى أن يتم إنشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب مارًا بوادي الفرات، ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين.

المادة السابعة:

يحق لبريطانيا العظمى أن تنشئ وتدير وتكون المالكة الوحيد لخط حديدي يصل حيفا بالمنطقة (ب)، ويكون لها ما عدا ذلك حق دائم بنقل الجنود في أي وقت كان على طول هذا الخط.

ويجب أن يكون معلومًا لدى الحكومتين أن هذا الخط يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد، وأنه إذا حالت دون إنشاء خط الاتصال في المنطقة السمراء مصاعب فنية أو نفقات وافرة لإدارته تجعل إنشاءه متعذرًا، فإن الحكومة

الفرنسية تسمح بمروره في طريق بربورة- أم قيس- ملقا- إيدار- غسطا- مغاير إلى أن يصل إلى المنطقة (ب(.

المادة الثامنة:

تبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة في جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء في المنطقتين (أ) و(ب)، فلا تضاف أية علاوة على الرسوم، ولا تبدل قاعدة التثمين في الرسوم بقاعدة أخذ العين، إلا أن يكون باتفاق بين الحكومتين. ولا تنشأ جمارك داخلية بين أي منطقة وأخرى في المناطق المذكورة أعلاه، وما يفرض من رسوم جمركية على البضائع المرسلة يدفع في الميناء ويعطى لإدارة المنطقة المرسلة إليها البضائع.

المادة التاسعة:

من المتفق عليه أن الحكومة الفرنسية لا تجري مفاوضة في أي وقت للتنازل عن حقوقها، ولا تعطي ما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء لدولة أخرى إلا للدولة أو لحلف الدول العربية، دون أن توافق على ذلك مقدمًا حكومة جلالة الملك التي تتعهد بمثل ذلك للحكومة الفرنسية في المنطقة الحمراء.

المادة العاشرة:

تتفق الحكومتان الإنجليزية والفرنسية، بصفتهما حاميتين للدولة العربية، على ألا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة بأن تمتلك أقطارًا في شبه جزيرة العرب، أو تنشئ قاعدة بحرية على ساحل البحر المتوسط الشرقي، على أن هذا لا يمنع تصحيحًا في حدود عدن قد يصبح ضروريًا بسبب عداء الترك الأخير.

المادة الحادية عشرة:

تستمر المفاوضات مع العرب بنفس الطريقة السابقة من قبل الحكومتين لتحديد حدود الدولة أو حلف الدول العربية.

المادة الثانية عشرة:

من المتفق عليه ما عدا ذكره أن تنظر الحكومتان في الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح إلى الدول العربية".

ونلاحظ على هامش الاتفاقية أمرين هامين بخصوص دولتي التحالف:

الأول: فيما يخص فرنسا فقد أرضت تلك المعاهدة الطموح الفرنسي الاستعماري في المشرق العربي وبلاد الشام، وهو الطموح الذي بدأ مع إطلاق البابا أوروبان الثاني الدعوة للحروب الصليبية من مدينة مونت كارلو الفرنسية 1095 في خطابة الشهير:

"أيها الجند المسيحيون، لقد كنتم دائما تحاولون من غير جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم، أفيقوا فقد وجدتم اليوم داعيا حقيقيا للحرب، لقد كنتم سبب انزعاج مواطنيكم وقتا ما، فاذهبوا الآن وأزعجوا البرابرة، اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار.

أيها الجند، أنتم الذين كنتم سلع الشرور والفتن، ألا هبوا وقدموا قواكم وسواعدكم ثمنا لإيمانكم، إنكم إن انتصرتم على عدوكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثا، وإن أنتم خذلتم فستموتون حيث مات يسوع، فلا ينساكم الرب برحمته، فيحلكم محل أوليائه، هذا هو الوقت الذي تبرهنون فيه على أن فيكم قوة وعزما وبطشا وشجاعة، هذا هو الوقت الذي تظهرون فيه شجاعتكم التي طالما أظهرتموها في وقت السلم، فإذا كان من المحتّم أن تثأروا لأنفسكم، فاذهبوا الآن واغسلوا أيديكم بدماء أولئك الكفار ."

واستمر ذلك الشغف الفرنسي بالشرق في جميع الحملات الصليبية التي كان دائمًا ما يخرج ملوك فرنسا ونبلاؤها على رأسها، وقام ملك فرنسا لويس التاسع منفردا بقيادة إحدى تلك الحملات على مصر، وحملة أخرى على تونس، الأمر الذي دفع الكنيسة الفرنسية لإدراجه - بعد وفاته بخمسين عامًا - كأحد القديسين.

وقد أعاد نابليون بونابرت في مغامرته العسكرية القصيرة على مصر والشام إحياء تلك الطموحات الفرنسية، ونجحت فرنسا بالفعل في احتلال الجزائر وتونس وإخضاعهم للسيطرة الفرنسية.

وهذا الشغف الفرنسي لم يكن خافيًا على بريطانيا، فقد رصده المؤرخ الإنجليزي إرنست باركر في كتابة "الحروب الصليبية"، فحرصت على إشباعه بما لا يضر مصالحها.

والملاحظة الثانية أن بريطانيا قد احتفظت لنفسها بالموانئ الهامة، كميناء عكا ويافا، وأعلنت بموجب الاتفاقية ميناء إسكندرونة ميناء حرًّا، كما مدت خطًّا للسكك الحديدة يضمن نقل جنودها من العراق للبحر المتوسط بسهولة، ما يسهل على بريطانيا السيطرة على خطوط الملاحة في البحر المتوسط، كما يُؤَمِّنُ حدودها المصرية، ويؤمن طريق الملاحة في قناة السويس، وهو ما يصب في مصلحتها الاقتصادية بشكل مباشر، ويحمي مستعمراتها وتجارتها في الهند، التي تعتبرها بريطانيا جوهرة التاج الإنجليزي، ولا تنوي أبدا التفريط فيها.

أما عن فلسطين، فقد كانت مثارَ خلافٍ شديدٍ بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، حيث رأت فرنسا أنها يجب أن تخضع لحكمها نظرًا لتبعيتها للشام، ورأت بريطانيا أنها بوابة مصر الشرقية ومدخل قناة السويس، بينما أصرت روسيا

على أن لها الحقَّ في الأماكن المقدسة بفلسطين، ما اضطر الثلاثة للموافقة على وضع فلسطين في النهاية تحت حكم دولي بإشرافهم مجتمعين.

وكما وعدت بريطانيا العرب بالاستقلال ووعدت فرنسا بمملكة الشام التي كانت لهم أطماع تاريخية فيها، فقد كان لليهود حلمٌ آخر يمكن استغلاله لتحقيق المصلحة البريطانية الكبرى، فالتحالف مع اليهود يُكسب بريطانيا حليفًا جديدًا في حربها ضد الدولة العثمانية، ويضمن تدفق القروض لتمويل تلك الحرب من بنوك أوروبا التي يسيطر عليها أثرياء اليهود، وبجانب تلك الأهداف المباشرة من التحالف مع اليهود كان هناك هدف آخر خفي، وهو توريط الولايات المتحدة في الحرب الدائرة بأوروبا، حيث كانت بريطانيا تعي حجم الوجود اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية وسيطرتهم على قطاعات الإعلام والتجارة والبنوك، وحدوث أي شكل من أشكال التفاهم بين بريطانيا واليهود سيمثل حافزًا قويا لليهود للضغط على أمريكا للمشاركة في الحرب، وكذلك يضمن فتح أسواق للتبادل التجاري والتعاون الاقتصادي بين بريطانيا وأمريكا بشكل موسع.

وكان قيام دولة يهودية في فلسطين بحماية بريطانية أوروبية ضامنًا آخر، في المستقبل، لعدم اتحاد مصر والشام في حِلفٍ عربي مُوَحَّدٍ يسيطر على نهر النيل وشمال إفريقيا من ناحية، وقناة السويس وآسيا الصغرى من ناحية أخرى، كما حدث في فترة حكم محمد علي، وسَبَّبَ قلقًا بالغًا للدول الاستعمارية الكبرى.

وبذلك كان الوعد الإنجليزي الثالث لليهود بإنشاء وطنٍ قوميٍّ في فلسطين، أو ما أطلق عليه "وعد بلفور"، الذي أطلق في الثاني من نوفمبر 1917.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



وعد بلفور
المقدمات التي لا تشبه النتائج

" وزارة الخارجية

في الثاني من نوفمبر/تشرين الثاني سنة 1917

عزيزي اللورد روتشيلد

يسرني جدًا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته، التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرته:

"إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة مقام قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليًا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر".

وسأكون ممتنًا إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيوني علمًا بهذا التصريح.

المخلص

آرثر جيمس بلفور".

في أثناء الحرب العالمية الأُولى، وقبيل شهرٍ من احتلال الجيش البريطاني لفلسطين والقدس بقيادة الجنرال اللنبي، أرسل اللورد بلفور هذه الرسالة لأحد أبناء عائلة روتشيلد وهو اللورد ليونيل والتر روتشيلد، ولم تكن هي الرسالة الأُولى بينهما، بل سبقتها مجموعة من الرسائل والمخاطبات حول أوضاع اليهود ومستقبلهم بعد نهاية الحرب، وقد كان أمرًا طبيعيًّا أن تُوَجَّهَ تلك الرسالة لأحد أفراد عائلة روتشيلد، وتحديدًا لليونيل، فقد كان اللورد ليونيل روتشيلد مهتمًا بالسياسة، ومتخذًا الحقل السياسي كمجال لممارسةِ نشاطه في خدمة الصهيونية، فكان أول يهودي يعين في مجلس العموم البريطاني، كما كان رئيسًا لفرع المنظمة الصهيونية العالمية في بريطانيا، وكان ابنُ عُمومته إدموند روتشيليد يسير في درب مختلف في خدمة الصهيونية، كما سار أثرياء عائلة روتشيلد من قَبلُ، فكان يُمَوِّلُ جميعة محبي صهيون ويرعاها، وكذلك يمول المستوطنات اليهودية في فلسطين، ويُشرف على رحلات اليهود المهاجرين من روسيا وشرق أوروبا، وقد أثمر درب إدموند وخُلِّدَت ذِكراهُ بأن طُبِعَت صورتُه على إحدى فئات العملات الورقية الإسرائيلية في وقتنا الحالي، وكذلك على طابع بريدي تذكاري، وكذلك أثمر

أيضا درب ليونيل وحصل على وعد بلفور، ذلك الوعد الذي من شأنه كتابة تاريخٍ جديدٍ للمنطقة.

وكان الوعد يحمل إمضاء السير آرثر جيمس بلفور كطرف مانح وموثق لوعد حكومة إنجلترا وصاحب جلالتها الملك جورج الخامس، والحقيقة أن الأمور لم تكن بذلك التفاهم والوئام بين الإنجليز واليهود الذي يبدو للوهلة الأولى عند قراءة الخطاب، فلم يكن موقف السير آرثر بلفور ولا موقف الحكومة البريطانية تجاه اليهود والصهيونية موقفًا واضحًا تمامًا، بل كان موقفًا مُلتبسًا شديدَ التعقيدِ، تحكمه المصالح المتبادلة التي تضعه في إطار أنيق، لكنه ملتهب بشوائب من الشك والريبة والحذر المتبادل.

فمن ناحية كان يتكون تيارٌ متصاعدٌ يُسمى الصهيونة المسيحية أو "Anglo Zionist" بقيادة العالم اليهودي البارز حاييم وايزمان، الذي كان على علاقة قوية بالنبلاء الإنجليز، واستطاع أن يؤسس لحلم يهودي/مسيحي مشترك ذي طابع ديني مستوحى من الكتاب المقدس ونقاط التشابه بين الديانتين المسحية واليهودية، وخصوصا تلك النقاط التي تتعلق بعودة المسيح مرة أخرى إلى الأرض، وقيام مملكته في القدس قبل نهاية العالم، أو ما يسمى "النزول الثاني" وقيام المسيح المخلص بقيادة أتباعه في معركة فاصلة بين الخير والشر في بلاد الشام، تسمى معركة المجد الإلهي، أو هرمجدون Hermagdon حتى يتربع المسيح المنتصر على عرش العالم ألف سنة تنتهي بنهاية العالم، وتقتضي رؤية الصهيونية المسيحية أن تحقيق ذلك الحلم لا يتم إلا في حاله عودة الشعب اليهودي إلى الأرض التي وعده بها الكتاب المقدس، وبذلك تصبح بريطانيا هي إرادة الرب التي اصطفاها لتحقيق ذلك الحلم.

وقد سادت تلك الأفكار بين الأوساط الأرستقراطية وبين الأثرياء، رغم أن الكثير من آباء الكنيسة قد شعروا فيها بالتعارض مع تعاليم المسيح التي تدعو إلى التسامح المساواة بين والبشر، ولا تميز بين الشعوب على أساس عرقي ولا قومي.

لكن تلك المعارضة لم تجدِ نفعا في الوقت الذي زاد فيه نفوذ حاييم وايزمان، وزادت بشدة شهرته في الأوساط العسكرية البريطانية الرفيعة، بسبب أبحاثه الكيميائية التي قادته لاكتشاف كيفيه استخلاص الأسيتون من الذرة الصفراء، وتنبع أهمية ذلك الاكتشاف من كون الأسيتون مكونًا أساسيًّا في صناعة المتفجرات التي تستخدم تحت الماء، ما مَثَّلَ إضافة هامة للترسانة الحربية البريطانية، في وقت كانت فيه في أمس الحاجة لأي دعم مماثل، وكلما بزغ نجم وايزمان وزاد نفوذه عمل على نشر أفكاره في دوائر أوسع، لكن تلك الأفكار المرتبطة بعودة اليهود للقدس ظلت تُقَابَلُ بالرفض مرارًا

وتكرارًا في الدوائر الحكومية الرسمية، حتى إنها لم تنل دعمَ الحكومةِ ولا اهتمامها عندما طرِحَت على مجلس الوزراء في مارس 1915.

لكن وايزمان لم ييأس، واستمر نشاطه بشكل ملحوظ حتى تم انتخابه في عام 1917 رئيسًا للاتحاد الصهيوني البريطاني، وسَرَت بعضُ التلميحات من الجانب اليهودي بإمكانية تسريب سِرِّ استخراج الأسيتون للقيادة الألمانية، وهو ما كان احتمالاً غير وارد، ولكنه يدل على توتر تحت السطح في العلاقات البريطانية الصهيونية.

وتجدر الإشارة إلى أن اليهود في بريطانيا لم يقفوا على قلب رجل واحد خلف وايزمان ورفاقه لتحقيق أهدافهم، فقد كان هناك تيارُ ممانعةٍ قوي ضد الصهيونية بوجه عام، وضد إنشاء وطن قومي لليهود بوجه خاص من قِبَلِ البريطانيين اليهود أنفسهم، الذين كانوا يدركون الفرق الشاسع بين مسميين غاية في التشابه "بريطانيين/يهود" و "يهود/بريطانيين" ويعملون على تقليص ذلك الفرق للحفاظ على المكاسب اليهودية في بريطانيا على مر العصور، حتى إنهم اعتبروا الصهيونية خطرًا عظيمًا على اليهود وعلى الديانة اليهودية نفسها، وقد دعم تلك الرؤية أن العديد من اليهود، وعلى رأسهم فئة الأثرياء، كانوا يخشون من أن تُنزع منهم أملاكهم بين ليلة وضحاها، ويلقى بهم إلى فلسطين ليبدأوا حياتهم من نقطة الصفر مرة أخرى في وسط صراع متأجج، وقد طلب منهم أن يعملوا بالزراعة ويحملوا الأحجار فوق أكتافهم، أو أن يحملوا السلاح وينخرطوا في مواجهات مسلحة بدلاً من حياة الترف والرفاهية التي يتمتعون بها في إمبراطورية تتربع على عرش العالم، وهم يتربعون على عرشها.

وقد أيدت وجهه النظر هذه التجارب الأولى التي رواها وكتب عنها اليهود الذين خاضوا تجربة الهجرة إلى فلسطين، وأحسوا بخيبة أمل شديدة وصدمة موجعة، إزاء واقع لا يطابق الأحلام الوردية التي روجت لها الصهيونية وبشرت بها.

وقد ورد في كتاب "الخروج من العراق" لإسحاق بارموشيه، اليهودي العراقي:

" لقد تركنا العراق كيهود ودخلنا إسرائيل كعراقيين ."

وهى عبارة تعبر بقوة عن حالة من التشتت واضطراب الهوية لم تكن في الحسبان، وبخاصة أنها صادرة من يهودي عاش حياته في بلاد عربية كالعراق، والتي من المفترض أنها قريبة الشبه والعادات من فلسطين.

وكان على رأس تيار المعارضة السياسي البارز "دوين صاموئيل مونتاجو"، وهو بريطاني من أصول يهودية، وكانت عائلته هي أول عائلة يهودية تشغل

منصبًا في مجلس وزراء بريطانيا، وقد ترقى في المناصب حتى أصبح وزيرًا للدولة لشؤون الهند في حكومة لويد جورج، وقد عبر مونتاجو عن موقفة وموقف الغالبية اليهودية في بريطانيا قائلاً:

"أشعر اليوم بأسى بالغ، فقد باءت جهودي كلها بالفشل، فإذا كان لويد جورج رئيس الوزراء وآرثر جيمس بلفور وزير الخارجية يؤيدان الحركة الصهيونية ويتحمسان لها، ولويد جورج وبلفور يدينان بالمسيحية، فإنني يهودي أعرف الشعائر جيدا، كما يعرفها حاخامات اليهود في أي بقعة من العالم، ومنذ البداية نظرت إلى الأفكار الصهيونية بحذر، وقد ناقشت وايزمان وناحوم سولكولوف وآحاد هاعام، وغيرهم من اليهود الصهاينة، واستمعت لقصص الاضطهاد التي تعرض لها اليهود الروس في ظل الحكم القيصري لروسيا، لكنني رفضت دائمًا فكرة خروج اليهود البريطانيين والأوروبيين من الجيتو الذي أجبرهم الاضطهاد على الإقامة بين حدوده، إلى جيتو آخر هو فلسطين".

وبرعاية ذلك التيار الممانع تكونت عدة حركات يهودية معادية للصهيونية، واتخذت تلك الحركات موقفًا متشددًا من وعد بلفور، وكان من أبرز ناشطي تلك الحركات المحامي والحقوقي اليهودي لوسيان وولف، الذي اعتبر أن الصهيونية شكل من أشكال معاداة السامية، وكذلك اعتبر الحراك الصهيوني حراكًا لادينيًّا علمانيًّا.

وقد أسفر ذلك الفكر المناهض لوعد بلفور عن تقدم هؤلاء المناهضين بمذكرة للحكومة البريطانية مطالبين بإسقاط وعد بلفور، لأنه يمس حقوقَ غيرِ اليهود في فلسطين من المسلمين والمسيحيين، وقالوا في طلبهم إن إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين سيؤدي لتجمع عددٍ كبيرٍ من اليهود في مكان واحد، ما سيشكل على اليهود خطرًا كبيرًا، وبخاصة عند محاولتهم طرد السكان الحاليين، وسيكون ذلك السبب في عداء شديد مع سكان فلسطين والبلاد العربية المحيطة بها.

وبالبحث عن علاقة اللورد آرثر بلفور باليهود، فيمكننا أن نكتشف أن وعده لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين عام 1917 لم يكن الوعد الأول من ذلك النوع من قبل الحكومة البريطانية، وكذلك لم يكن ظهوره في ساحة المفاوضات مع المنظمة الصهيونية هو الظهور الأول له، ففي عام 1902 قدم ثيودور هيرتزل اقتراحا للحكومة البريطانية لإقامة وطن قومي لليهود في قبرص أو العريش في شبة جزيرة سيناء، ولكن قابلته الحكومة البريطانية بالرفض، وطرح الوزير البريطاني جوزيف تشامبرلين حلاً بديلاً بحصول اليهود على وطن قومي في شرق إفريقيا، وتحديدًا أوغندا، ولاقى ذلك الاقتراح موافقة هيرتزل،، وكذلك موافقة رئيس الوزراء الإنجليزي آرثر بلفور، الذي أرسلت حكومته في عام 1903 رسالة لهيرتزل تتضمن تشجيعِ حكومةِ الملكِ

مقترح إقامة مستعمرةٍ قوميةٍ يهوديةٍ، وعرض هيرتزل ذلك الاقتراح بحماس في المؤتمر اليهودي العالمي، ولكن لم يتم تنفيذه في النهاية.

وكان لبلفور موقف آخر مختلف يعبر عن الموقف الرسمي الشامل للحكومة البريطانية تجاه اليهود، حيث طرح عام 1905 مشروعَ قانونٍ خاص بتنظيم هجرة المهاجرين الأجانب لبريطانيا، وخاصة اليهود، وسوق لذلك القانون بقوله الشهير:

" لكل بلد الحق في اختيار المهاجرين إليه، وإن مصائب كثيرة قد أصابت المجتمع البريطاني بسبب هجرة اليهود".

وكان لتلك الفترة من التاريخ البريطاني أبعاد درامية عديدة ومتنوعة، مثل ظهور تيار يحاول أن يغير مسار الحرب نفسها، ويهدف لعقد سلام منفرد بين بريطانيا والدولة العثمانية، وهو التيار الذي كان يتكون أساسا من المسلمين البريطانيين، الذين رأوا أنه شكل من أشكال العبث والكوميديا السوداء، أن تحارب بريطانيا الدولة العثمانية حامي حمى الإسلام، في الوقت الذي فيه ملايين من رعاياها في مصر والسودان والهند يدينون بالإسلام. ودعم ذلك التيار أفكاره بتوضيح أهمية بقاء الإمبراطورية العثمانية كحائط صد إستراتيجي منيع ضد أطماع روسيا في الشرق، وكخط دفاع هام في وجه الجيوش الروسية من الوصول للبحر المتوسط وتهديد السيطرة البريطانية عليه.

وقد لاقت تلك الآراء صدى واسعًا عند تيارات داخل الحكومة البريطانية، ومن المستشرقين الذين دعموا وجهة النظر القائلة إن إنجلترا من الصعب أن تنتصر على ألمانيا في الحرب بشكل مباشر، وبخاصة مع التفوق الميداني الألماني الواضح، ويجب البحث عن باب خلفي للحلفاء للانتصار في الحرب، وربما كان هذا الباب الخلفي لا يفتح إلا بالتفاوض مع العثمانيين.

وكان من أبرز مروجي تلك النظرية المستشرق مارمادوك بكتال، الذي كان خبيرًا بشؤون الشرق الأوسط، وكان أول من ترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية، وله العديد من المؤلفات حول الحياة في الدولة العثمانية، وكذلك رجل الأعمال جي آر بيلنج، الذي كانت تربطه علاقاتٌ تجارية قوية مع الدولة العثمانية، وكذلك كان لذلك التيار حليف قوي وهو السير هنري مورغان، أحد رجال السياسة الأمريكيين، والعضو البارز في الحزب الديمقراطي، والذي كان سفيرًا لأمريكا في الشرق في خلال الفترة الأولى من الحرب، وقد عرض على الساسة البريطانيين أن يستغل علاقاته في الدولة العثماني، وبخاصة مع أنور باشا وطلعت باشا قادة حزب الاتحاد والترقي، للحصول على تسوية ما، تنسحب بموجبها الدولة العثمانية من الحرب، وقد قام بتلك

المفاوضات في النهاية تاجر السلاح الشهير السير بازل زخارف، نيابة عن الإمبراطورية البريطانية، وبرعاية أنور باشا من الجانب التركي، وحرصت بريطانيا على أن تتم اللقاءات بين الجانبين في طي السرية والكتمان؛ لتجنب إثارة حلفاء بريطانيا الذين ربطتهم بها معاهدات وأجزلت لهم الوعود في حالة سقوط الدولة العثمانية كالعرب واليهود، ولكن تعطلت تلك المفاوضات بسبب قيام الثورة الروسية وخروج روسيا من معادلة الحرب، الأمر الذي أثار شهية الدولة العثمانية لمزيد من الانتصارات في ظل غياب غريمها الأقوى، الذي شكل عليها الخطر الأكبر في جبهات القتال.

وعلى الرغم من كل هذه المعوقات والاعتراضات من قِبَلِ اليهود أنفسهم، ومن قبل أطراف من الحكومة البريطانية وأطراف أخرى متعاطفة مع الدولة العثمانية، فقد صدر وعد بلفور في النهاية متناغمًا مع اتفاقية "سايكس- بيكو" التي سبقته، وسابقًا أي محاولة ألمانية لإصدار وعد مماثل لليهود الصهاينة يضمن تحالفهم وولاءهم خلال الحرب وبعدها، وهو أمر لم يكن مُستبعدًا، خاصة لتحالف الألمان مع العثمانيين الذي يمكن أن يشكل عاملَ ضغطٍ قويا على الدولة العثمانية التي تمتلك فلسطين في الأساس وتدير شؤونها، ولهذا يرى العديد من الباحثين أن الدلائل تشير إلى أن اليهود في مفاوضاتهم مع الحكومة البريطانية، للحصول على وعد بلفور، كانوا يخوضون سباقًا نتيجته محسومة مسبقًا لصالحهم.

وبالفعل بدأت الهجرات اليهودية تتدفق على فلسطين والقدس، وتسارعت وتيرة الأحداث بشكل لافت، فزاد عدد المهاجرين اليهود ليصل إلى 35 ألف نسمة، وهو رقم كبير إذا علمنا أن عدد يهود إنجلترا كان لا يزيد على 300 ألف، وعدد اليهود المنتمين للفكر الصهويني كان نحو 8 آلاف فرد، ثم استمرت أعداد المهاجرين في الارتفاع بشكل واضح لتصل بنهاية 1930 إلى 320 ألف نسمة، ما غَيَّرَ التركيبة السكانية للمجتمع الفلسطيني الذي كان يمثل فيه اليهود أقلية بنسبة 3% ثم ارتفعت تلك النسبة حتى أصبح اليهود 30% من عدد السكان.

وقد أفرزت تلك الهجرات المكثفة، مشكلة اجتماعية لليهود أنفسهم لم تكن في الحسبان، فقد كان اليهود الأوروبيون يختلفون تمامَ الاختلاف عن يهود فلسطين الأوائل، وكان من الصعب التفاهم والتمازج بينهم، فقد كان اليهود الذين سكنوا في فلسطين قبل الهجرات يتحدثون اللغة العربية ويعيشون في رعاية الدولة العثمانية، ويرضخون للأغلبية العربية في العادات والتقاليد، بل كانت طباعهم شرقية كطباع مسلمي ومسيحيي الشرق، وكانت نواياهم تجاه فلسطين ورؤيتهم لها تختلف بشكل جذري عن رؤية اليهودي الأوروبي، فقد هاجر بعضهم لفلسطين لقضاء ما تبقى من حياته في أرض الميعاد، لتكون

نهاية رحلته في الأرض المقدسة، ولم يكن لهم أحلام دنيوية، بينما كان اليهودي الأوروبي يحمل فكرًا وثقافة غربية وأرستقراطية جديدة، تغلفها أحلامٌ ببناء حياة جديدة، وتأسيس وطن مستقل، فكان اليهودي الأوروبي يرفض واقع فلسطين الحالي ويسعى لتغييره، وهو في ذلك متسلحٌ بالفكر الاستعماري الأوروبي الذي يرى أن احتلال الشعوب حقٌّ طبيعي لأوروبا؛ بسبب تفوقها العلمي والحضاري، ويضاف لهذا الحق الأُوروبي الطبيعي حقٌّ آخر مكتسب، نتيجة إحساس اليهود بالظلم والاضطهاد والتشتت لسنوات طويلة يدفعهم للبحث عن الثأر والتعويض.

وبدأ اليهود المهاجرون في تكوين مستعمرات زراعية تعرف بالكيبوتس، وهو نمط محدد من الاستيطان يهدف في البداية لعدم الاختلاط بالسكان المحليين قدر الإمكان، وتحقيق الاكتفاء الذاتي في المأكل والمشرب والعلاج، وكان اليهودي المهاجر يُفرض عليه بمجرد أن يصل إلى فلسطين أن يترك وظيفته الأصلية التي كان يعمل بها في أوروبا، وبخاصة لو كان من أصحاب الأعمال الكتابية، وكان يتم تأهيله حتى يتخذ حرفةً جديدة كالزراعة أو السباكة أو البناء، وغيرها من الحرف اليدوية الشاقة التي تناسب هذا المجتمع الناشئ، ويبدأ في ممارسة تلك الحرفة في خدمة زملاء المستعمرة، وفي المقابل يتم توفير احتياجاته الأساسية من الطعام والشراب والملابس، في إطار من المشاركة والملكية العامة، وهو تطبيق مثالي للمجتمع الاشتراكي الذي وصفه كارل ماركس في كتاباته، وكان على أطفال اليهود أن ينفصلوا عن أهلهم، ومن ثم يتم تجميعهم من المستعمرات المختلفة في مدارس داخلية ليتم تربيتهم وتعليمهم وفق منهج موحد، بعيدا عن سلطة الأب والأم، وأفكارهم التي ما زالت تحمل رواسبَ العالم القديم ومرحلة الشتات.

وهو ما عبر عنه الشاعر اليهودي ناثان ألترومان في قصيدة بعنوان الاستيطان:

"كن بنات صغيرات

كانوا أولاد صغارا

كمهاجرين جدد

معهم حقائب صغيرة

تجولوا في يهودا

في وادي البحيرات

هاجروا إلى فلسطين

ليصبحوا أوائل الطليعة

وكل من يراهم يقول

إنه جنس غريب من البشر

قالوا إن

الكلام غير كافيا

يجب علينا أن نزيل الحجارة

ونحفر بئرا

يجب أن نحرث ونزرع

يجب أن نعمل

قالوا لا يجب أن تخاف

من اللصوص ومن الأعداء الجبارين

يجب أن تنهض وتخرج للحراسة

على صهوة حصان

معلقا بندقيتك على الكتف "

الاستيطان، ناثان ألترومان

ومع توسع اليهود في اشتراء الأراضي وإقامة الكيبوتس، وتغير نسب وحدود الملكية بدأ الفلسطينيون في إدراك أنهم أمام خطرٍ حقيقي، فعقدت القبائل الفلسطينية مؤتمرًا موسعًا في عام 1919، سمي بالمؤتمر الوطني الأول، أسفر ذلك المؤتمر عن "إدانة وعد بلفور" و"إعلان رفضه بالكامل"، ولكنه لم ينجح في اتخاذ خطوات عمليه من شأنها مواجهة التوسع اليهودي وإيقافه، ورغم كثرة عدد الفلسطينيين وتشكيلهم الأغلبية على الأرض، إلا أنهم كانوا شعبًا قبليًّا لم يحظَ بحكومة مركزية موحدة، ولم ينل حكمًا ذاتيًّا لسنوات طويلة، ولم يتمتع بخبرة ممارسة السياسة، ولا الإدارة في مواجهة قوة استعمارية وحضارية منظمة كبريطانيا، التي ما زالت تحكم المنطقة وتسيطر عليها، ومواجهة فكر تنظيمي مؤهل كالصهيونية، وكذلك من الناحية الاقتصادية كانت آليات السوق الفلسطيني عشوائية، واقتصادياته بدائية ضعيفة، حيثُ تتمركز رؤوس الأموال في أيدي قلةٍ من الملاك والإقطاعيين، في مواجهة العقلية التجارية اليهودية التي تجيد عقد الصفقات التجارية وتحريك الأسواق، والتلاعب بالدول والحكومات، وزاد من تعقد الأمر أن أغلب

النشاط الاستيطاني اليهودي كان في المناطق الزراعية، والريفية التي تتضخم بها المشاعر القبلية، وتفتقر إلى التنسيق والاتصال والقدرة على اتخاذ القرار بشكل فاعل وصحيح.

وكانت النتيجة الحتمية لتلك الحالة المتردية حدوث اضطرابات عديدة في أنحاء فلسطين، سقط فيها عدد كبير من العرب واليهود عام 1920، وبصعوبة بالغة نجح الجيش البريطاني في السيطرة عليها بمساعدة الميلشيات اليهودية المسلحة التي أدركت أهمية ذلك التسليح، فعملت على تنمية نفسها، وتكوين مجموعة سرية باسم "الهاغانا"، وكان لتلك الميلشيا دور كبير في النزاعات المسلحة مع العرب، وفي ترهيب القرى والقبائل الفلسطينية، وأصبحت "الهاغانا" لاحقًا، نواةً لجيش الدفاع الإسرائيلي عقب إعلان قيام الدولة.

ورغم تصاعد المقاومة الفلسطينية للاستيطان فقد اتخذت عصبة الأمم قرارًا في 1922 بالانتداب البريطاني لفلسطين، متضمنًا وعد بلفور، ما أكسب الوجود اليهودي في فلسطين شرعيةً دولية موثقة، ما شجع اليهود في تغيير سياستهم الاستيطانية وتطويرها، فلم يكتفوا فقط بالكيبوتس، فبدأوا في بناء مدن حديثة على الطراز الأوروبي، ذات مبانٍ بيضاءَ متعددة الطوابق، وشوارع ممهدة تحيطها الأشجار، وبرزت مدينة "تل أبيب"، وصارت مثالاً للمدن اليهودية الخالصة والتي لا يعيش بها العرب، ولا يدخلونها إلا من أجل العمل والتجارة.

ومع تنامي الصراع الفلسطيني الإسرائيلي الذي أصبحت تكلفته عالية على الإدارة البريطانية، ومع تزايد أعداد اليهود المهاجرين بدأت بريطانيا في اتخاذ سياسة جديدة، وتبعتها باتخاذ عدد من الخطوات العملية من شأنها تعديل وعد بلفور، وتقليص أعداد اليهود في فلسطين، حيث قدمت مذكرة في أغسطس 1922 إلى عصبة الأمم "تطالب فيها بتنفيذ الانتداب البريطاني على فلسطين، واستبعاد شرق الأردن من جميع الأحكام التي تتعامل مع الاستيطان اليهودي، وتمت الموافقة على هذه المذكرة من جانب عصبة الأمم في 12 أغسطس 1922 ثم أصدر اللورد تشرشل في نفس العام ما سُمِّيَ بالكتاب الأبيض، وهو مخطوط يشترط فيه بأن تكون الهجرة اليهودية وفقًا "للقدرة الاستيعابية الاقتصادية" لفلسطين. ثم صدرت عدة نسخ أخرى من الكتاب الأبيض تقيد اشتراء اليهود الأراضي الفلسطينية، وتحد من هجرة اليهود لفلسطين، وبدا واضحًا أن بريطانيا قد انتهجت نهجًا جديدًا بشكل تدريجي في التعامل مع الموقف، وحل التعقيدات التي خلقتها لنفسها ولحلفائها من الأطراف المختلفة في المنطقة العربية بالوعود العديدة التي أطلقتها خلال الحرب العالمية الأولى.

وكان على بريطانيا أن تسعى للحفاظ على علاقات جيدة مع العرب، وأن تَحدَّ من الأطماع الصهيونية التي ربما تطمع في إلغاء الانتداب البريطاني، وتهدد وجودها في فلسطين، وهو ما لا يمكن أن تقبله بريطانيا؛ لأهمية موقع فلسطين الجغرافي كمدخل شرقي لمصر، وصحراء سيناء التي تسيطر من خلالها على قناة السويس، وطرق الملاحة البحرية الهامة في البحر المتوسط، وكذلك تأمين طريق البضائع القادم من الهند، تلك المستعمرة الرئيسية والمصدر الهام للثروة والنفوذ البريطاني الاقتصادي والعسكري.

ورغم حالة التضييق والمنع لهجرة اليهود فقد استمرت المستوطنات في التوسع، واستمرت الهجرات اليهودية في التدفق على فلسطين بأشكال سرية مختلفة، كما استطاع قادة اليهود ومليشياتهم العسكرية في فرض الأمر الواقع على الأراضي الفلسطينية، وساعدهم في ذلك حليفتهم القوية الولايات المتحدة الأمريكية، التي أصبحت اللاعب الجديد في المنطقة بعد نهاية الحرب، واستشرى فيها تيار الصهيونية المسيحية بداخل الكنائس البروتستانتية، بشكل غير مسبوق.

لذلك يمكن القول إن وعد بلفور لا يختلف كثيرا عن مئات الوعود التي تصدر في حالة الحرب، ويحاول السياسيون عن طريقها الحصول على أقصى مكاسب ممكنة من حلفائهم ومن أعدائهم على حد السواء، أو كغيره من الوعود التي يصدرها الملوك والزعماء عند إلقاء الخطابات الحماسية، وعند تأزم المواقف السياسية وعندما تدق طبول الحرب، وأن العامل الحاسم في انتزاع ذلك الوعد وتنفيذه بهذا الشكل كان صلابة وعناد المهاجرين اليهود الأوائل، الذين صمموا على انتزاع دولتهم من أيدي أعدائهم، ومن مخالب حلفائهم، غير عابئين بالجميع.

وهو ما عبر عنه "ديفيد بن جورين" أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل بقوله:

"لا يهم ماذا يقول العالم، المهم ماذا يفعل اليهود ."

قوانين نورمبرغ وقيام الدولة

كان ضمير المستعمر الأُوروبي مطمئنًّا إلى أن تفوقه، الحضاري والعلمي، يغفر له ما ارتكبه من جرائمَ في حقِّ غيره من الأجناس، بعد أن نجح في تطويع اللغة وتسخير دلالتها ليُحَرِّفَ الكلماتِ عن مواضعها، فتصبح كلمةُ استعمارٍ البديلَ المناسبَ لكلمة احتلال، وكلمةُ مستعمرةٍ البديلَ المناسبَ لكلمة دولة محتلة، وأصبحتِ الشعوبُ الخاضعة رعايا، والثوار متمردون، والقمع وسيلة للنظام وفرض الأمن والاستقرار.

ولم يكن خفيًّا على أحد الصراعُ "الأوروبي - الأوروبي" على فرض السيطرة على محيطات وبحار العالم ومستعمراته، ذلك الصراع الذي خرجت منه ألمانيا ودول المحور خاليةَ الوفاض بمعاهدة صلح مجحفة بعد الحرب العالمية الأولى "معاهدة فرساي 1919"، التي فرضت على ألمانيا التنازلَ عن العديد من الأقاليم التي تمتلكها، وكذلك دفعَ تعويضاتٍ باهظةٍ عن الأضرار التي خلفتها الحرب، ما حملها عِبئًا ثقيلا أثَّرَ بشدة على الاقتصاد الألماني، وأدى لحالة من السخط والتذمر، ساهمت في صعود تيارات اليمين المتشدد متمثلةً في الحزب النازي بقيادة أدولف هتلر، كمحاولة لاستعادة الروح الألمانية القومية والتخلص من تبعات الماضي المشينة، وبخاصة أن هتلر كان أحد مقاتلي الحرب العالمية الأولى برتبه عريف، وظل يفخر بتقلده وسامَ الصليب الحديدي بسبب شجاعته في الحرب، حتى نهاية حياته.

كان العالم بالفعل قد بدأ يدخل في منحنى جنوني خطير، مع تقلص دور عصبةِ الأمم، ذلك الكيان الذي كان من المفترض أن يعمل على تحقيق العدلِ ومنح الشعوب الحريةِ، ومنعِ العالمِ من تدميرِ نفسِهِ.

فقد صعدت التيارات الفاشية المتعصبة في إيطاليا بقيادة بينيتو موسوليني، وإسبانيا بقيادة فرانكو، وعمدت إيطاليا إلى مباشرة أطماعها التوسعية بغزو إثيوبيا في 1935، وكانت اليابان أيضا تعمل على تدعيم نفسها كقوة عظمى ذات جيش قوي وأسطول بحري ضخم، فظهرت أطماعها التوسعية الضخمة بداية باحتلال منشوريا سنة 1931، ثم احتلال الصين التي توجهت حكومتها بشكوى رسمية للمجتمع الدولي تطلب المساعدة، وأصبح واضحًا فشلُ عصبة الأمم في إجبار اليابان على الانسحاب من الصين، وكذلك فشلها فيما يخص فرض الرقابة على الأسلحة وتطوير الجيوش الهجومية، وبدأت الولايات المتحدة الأمريكية في الرجوع مرة أخرى لعزلتها السياسية، وغضت الطرف عما يحدث في أوروبا، وكانت بريطانيا وفرنسا تفضلان الابتعاد عن أيَّةِ مواجهةٍ سياسية أو عسكرية، حتى يتسنى لهما اتخاذ الوقت الكافي لشفاءِ جروحهما من الحرب العالمية الأولى، ومحاولة إزالة آثار الدمار والخراب الذي لم تتعافيا منه بشكل كامل.

ولم يكن أمام هتلر فرصةٌ أفضل من هذه للتخلص من معاهدة فرساي، فقام بشكل تدريجي بإعادة تأهيل الجيش الألماني وتسليحه تسليحًا قويًّا، وأعاد بناء الأسطول الجوي الألماني، ثم استغل بعض الخلافات في تشيكوسلوفاكيا بالمناطق الحدودية التي تضم أغلبيةً من أصول ألمانية، فدعا القوى الأوروبية إلى مؤتمر في ميونخ 30 سبتمبر 1938، للبحث عن حل لتلك الخلافات، وضم المؤتمر حليفه الأبرز بنيتو موسوليني، وكُلاً من رئيس وزراء بريطانيا نفيل تشمبرلين، ورئيس الوزراء الفرنسي إدوار دالاديه.

وأسفر ذلك المؤتمر عن التخلي عن جزء من تشيكوسلوفايكا للألمان، في مقابل أن تَعِدَ ألمانيا بعدم المطالبة بالتوسع في أراض أوروبية أخرى، لكن هذا الاتفاق لم يكن كافيًا لإشباع الأطماع النازية إلا بشكل مؤقت، فقد اعتبر هتلر هذا التنازل الإنجليزي الفرنسي علامةً من علامات الضعف، وقلة الإرادة، وبخاصة لما كانت تربطهما بتشيكوسلوفاكيا من معاهدات حماية، وتعاون مشترك، وبالتالي أَعَدَّ العُدَّةَ للخطوة التالية، وقبل مرور ستة أشهر من توقيع الاتفاق كان قد أسرع باحتلال تشيكوسلوفاكيا بالكامل، وضمَّها لنفوذه في 15 مارس 1939.

ولم يكن الدهاء السياسي وحسن التوقع موهبة هتلر الوحيدة، فقد كان خطيبًا مفوهًا يجيد استخدام العبارات القصيرة، والشعارات المكثفة التي تَعلَقُ في الأذهان، وكان يجيد الدفع بالآخرين إلى التفكير بمثل طريقته، وذلك عن طريق ابتزاز العواطف، وبثِّ الحقد والعداء.

وقد أدلى بذلك في أحد تصريحاته قائلاً:

" الجموع أنثوية وغبية، وحدهما العواطف والحقد يمكنهما أن يسيطرا عليها "

ولهذا فقد تَبَنَّى خطابًا تَعبَويًّا قوميّا، يرتكز على إحياء النزعة العرقية بدعوى تفوق الجنس الألماني "الآري" ويطالب بحقِّهِ في فرض سيطرته على أوروبا والعالم، وتبنى خطابًا آخر متربصًا باليهود ومعاديًا لهم، إذ رأى أنهم السببُ في إشعال الفتن التي أدت إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى منذ البداية، وأنهم السبب الرئيسي في هزيمة ألمانيا في نهاية الحرب، وهم المخطط الرئيسي لاتفاقية فرساي لإغراق بلاده في الديون، والسيطرة عليها، وهم السبب في التضخم والبطالة، وكان دائما ما يقول: "اليهود طعنوا النسر الألماني "

وقد شرح أدولف هتلر موقفَه من اليهود بشكل مُفَصَّلٍ في كتابه الشهير "كفاحي"، هذا الكتاب الذي تناول سيرته الذاتية، وأفكاره التي تطورت فيما بعد وأنجبت المنهج النازي الذي قام بتطبيقه بشكل كامل فور وصوله لحكم ألمانيا.

"وبسبب اهتمامي بالمعمار والصعاب التي واجهتها، لم ألاحظ وجود مئتي ألف يهودي بين المليونين الذين يقطنونها، غمرتني الأفكار والقيم الجديدة، وفقط مع عودة الوعي والتروي وضحت الرؤية، في البداية أغضبتني للغاية انتقادات بعض الصحف المحلية لليهود، وتصورت أنها رجعة إلى تطرف العصور الوسيطة، وبما أن المجلات المعنية ما كانت حسنة السمعة، تصورت أن القضية لا تزيد على كراهية وحسد، وأكد صحة هذا الرأي الأسلوب النبيل الذي استخدمته الصحف الكبيرة في الرد على هذه الاتهامات، أو رفضها في أحيان كثيرة مجرد التعليق عليها، وقتلها بالصمت المطبق.

قرأت الصحافة الدولية وأذهلني وسع أفقها ومواضيع مقالاتها، احترمت سموها الفكري، وإن ضايقني أحيانا ما اعتبرته نوعًا من النفاق على حساب الحقيقة، فقد رأيت مغازلة هذه الصحف للسلطة، وما حدث أمر يتعلق بالحكومة، إلا ووصفوه بحماس منقطع النظير، وفي ذات الآن، كانوا أحيانا يهاجمون الحكومة القيصرية في ألمانيا، كانت موضوعيتهم إذن عبارة عن احترام مصطنع لاتفاقية بين دولتين، شعرت بسطحية هذه الصحافة، وبدأت ألاحظ نقاط ضعفها، قرأتها الآن بحذر، ولاحظت أن الصحافة المعادية لليهود، كانت أكثر صراحة أحيانا، بل إن بعض ما نُشر على صفحات الأخيرة كان يدفع للتفكير.

وفي يوم لاحظت يهوديًا في شوارع فيينا وتطلعت له متسائلاً: هل هذا الرجل ألماني؟ كالعادة قمت بالقراءة عن هذا الموضوع، وكانت الكتب سيئة، الكُتّاب تصوروا أن القارئ يعرف كل ما هو ضروري عن أساسيات الموضوع، وجله قدم أفكارا غير علمية البتة، تراجعت، وخشيت أن تتكون لدي آراء غير عادلة بهذا الشأن.

ما بات واضحًا لي هو أن اليهود ما كانوا ألمانًا، بل هم شعب خاص. فمنذ أن بدأت بدراسة الموضوع بت ألاحظهم، وكانت تصرفاتهم وأخلاقياتهم وأشكالهم تخالف تمامًا الألمان العاديين.

بل إنني عرفت أن هناك بينهم حركة تدعى الصهيونية تؤكد أنهم شعب خاص، وكان واضحًا أن بعضهم وافقوا على هذه الفكرة، وعارضها آخرون، لكن المعارضين للصهيونية بدوا لي كاذبين، لأنهم ما رفضوا الصهاينة كمارقين، بل كيهود يقدمون أفكارا خطيرة وأساليب ضارة للتعبير عن هويتهم الدينية، وهكذا كانوا جميعا جسدًا واحدًا، الصهاينة وغيرهم.

خلال فترة قصيرة تقززت من الحوار بين اليهود الصهاينة واليهود غير الصهاينة، لأن الحوار بدا لي مبنيًا على خداع كاذب لا يتلاءم مع السمو الخلقي، والطهارة التي يدعيها الشعب المختار لنفسه.

ثم لاحظت أيضًا الدور الذي يلعبونه في الحياة الثقافية: ولا أدري هل يوجد أي نوع من أنواع الفساد الأخلاقي والثقافي دون أن يكون أحدهم وراءه، لاحظت دورهم في الصحافة، الفن، الأدب، المسرح. لم أحتج إلا لقراءة الأسماء وراء كل إنتاج يسعى لهدم البنية الأخلاقية للمجتمع، وفي جميع الميادين. إن أنتجت الطبيعة واحدًا مثل جوته، فهناك مقابله آلاف من هؤلاء الذين يبثون السموم في أرواح الناس، وبدا كأن الطبيعة قد خلقت اليهود للقيام بمثل هذه الأدوار.

تسعة أعشار القاذورات في ميداني الأدب والمسرح أنتجها الشعب المختار، وهم لا يزيدون على 1% من السكان، أما الصحافة الدولية التي أحببتها يومًا

فكان غالب كتابها منهم، أدركت الآن أن أسلوبهم الموضوعي في الرد على مهاجميهم، والتزامهم الصمت أحيانا، ما كانا إلا خداعا يهدف للسيطرة على الناس، لاحظت أن الأعمال المسرحية والأدبية التي يمتدحونها هي التي يقدمها اليهود، أما الأعمال الأدبية الألمانية، فانتقدوها دائمًا بقسوة بالغة، ما اختبأ وراء الموضوعية المصطنعة كان العداوة الشديدة لكل ما هو ألماني.

ولكن، لمصلحة من كان كل هذا؟

هل كان كله محض صدفة؟

بت غير واثق شيئًا فشيئًا".

وهذه الفقرات تصف فترة إقامته في فيينا، خلال مراحل تكوينه الأُولى، عندما كان يحاول أن يعمل خطاطًا وينشغل بالفن، وكيف تطور فكره ورؤيته تدريجيًّا إزاء اليهود.

ولم يَقتَصِرْ عداءُ هتلر في كتاباته على اليهود، فقد شمل أيضا الاشتراكيين والديمقراطيين، وكل المخالفين له في الرؤى والأفكار.

وقد تطور ذلك الخطاب العنصري في النهاية بإصدار الحزب النازي مجموعة قوانين في 15 سبتمبر 1935، تسمى "قوانين نورمبرغ"، ونورمبرغ هي مدينة من المدن الألمانية القديمة التي ارتبطت في الأذهان بالمحاربين الألمان القدماء في العصور الوسطى و"قوانين نورمبرغ" هي سلسلة من القوانين العنصرية تسعى لتنقيه السلالة الآرية المتفوقة وتجهيزها لحكم العالم، بحيث يتم استبعاد كل مَنْ هو ذو دماء مختلطة، أو مِنْ أصولٍ غير ألمانية خالصة.

وكان الشخص ذا العرق غير الآري يعرف بمتعدد العروق أو ما أطلق عليه "العار العرقي"، وهو ما اعتبر جريمة تسم صاحبها، وحددت قوانين نورمبرغ "اليهودي" على أنه شخص ينحدر من ثلاثة أو أربعة أجداد يهود، أو إنه الشخص الذي يكون أحد جديه لأبويه من أُصول يهودية.

وبسبب هذا التصنيف الصارم أصبح الآلاف من الأشخاص الألمان الذين تزوج أجدادهم من اليهود، أو كان أحد أجداهم من اليهود معرضين لأحكام القانون، وكذلك كل الذين تحولوا من اليهودية إلى أي ديانة أخرى، وكان من بينهم قساوسة كاثوليك، وقساوسة بروتستانت، وشخصيات عامة، ولم يَسلَمْ من هذه القوانين وتبعاتِهاِ أحد، حتى الجنود اليهود في الجيش الألماني.

فقد أدت تلك القوانين لتشكيل سياسة تشريعية رسمية معادية لليهود في ألمانيا، وكان أهم تشريعين في قوانين نورمبرغ هما "قانون مواطنة الرايخ" و"قانون حماية الدم والشرف الألماني"، وهما اللذان ألغيا مواطنةَ اليهود، كونهم أبناء دم غير نقي، ومنعَا قيام علاقات جنسية بين اليهود وغير اليهود، أو

تشغيل الخادمًات الألمانيات في المنازل اليهودية، ومنعا الأطباء اليهود من معالجة غير اليهود، ولم يسمحا للمحامين اليهود بممارسة القانون، واستهدفت هذه القوانين الفصل القانوني والاجتماعي والاقتصادي بين اليهود والألمان بشكل كامل.

ثم تطور الأمر بشكل أكثر خطورة حيث أرادت الحكومة زيادة الضغط الاقتصادي على اليهود، ومحاصرة مواردهم، وذلك من خلال مطالبتهم بتسجيل ممتلكاتهم، ثم قامت بعد ذلك بتحويل تلك الممتلكات إلى أشخاص آريين، ما كان يعني الاستيلاء على ملكية أغلب الشركات اليهودية لصالح الألمان الذين اشتروها بأسعار زهيدة حددها الحزب الحاكم، وطردَ العمال والمديرين اليهود.

وكذلك كانت هنالك خطوة أخرى فاصلة لتمييز اليهود وتقنين وجودهم وتسهيل فرزهم، إذ تم استخراج بطاقات هوية جديدة لليهود، مضافًا إليها علامات تعريف خاصة، وفرض على اليهود الذين لا يحملون أسماء يهودية خالصة؛ ولا يمكن التعرف على هويتهم من خلال أسمائهم مباشرة، تغيير أسمائهم بإضافة اسمٍ مميز بعد الاسم الأول، وكان هذا الاسم هو "إسرائيل" للرجال و"سارة" للنساء، وسمحت تلك البطاقات للبوليس بحصر اليهود وتحديد تجمعاتهم وأماكن إقامتهم بسهولة تمهيدًا للقضاء عليهم، وفي ليلة سماها النازيون "ليلة الزجاج المحطم" تم إحراق كل معابد اليهود، وأصبحت مسالة وقت قبل أن يتم إحراق اليهود الألمان كذلك.

لم يكن عدد اليهود في ألمانيا يزيد على 500 ألف نسمه حسب التقديرات، وقد سمح لأكثر من نصف هذا العدد بالرحيل من ألمانيا في مقابل أن يتخلى عن كل ممتلكاته، ولم يتبقَ إلا الفقراء الذين لم يجدوا ما يفتدون به أنفسهم، فأُرسلوا إلى معسكر اعتقال يسمى "داكو" وقد أُنشِئَ خصوصًا لهذا الغرض، وأرسل معهم الشيوعيون والديمقراطيون وكل المعارضين الآخرين من كل الفئات، وامتدت الاعتقالات لتشمل الغجر والأفارقة الموجودين في ألمانيا، أو في سائر الدول الأوروبية التي احتلوها فيما بعد، واعتقل كذلك عدد كبير من أعضاء مجلس النواب الألماني "رايخ ستاج" المعارضين لهتلر وسياسته، وتم ضربهم بالسياط، وإلقاؤهم بالساعات في المياه المثلجة.

وبعد أن اطمأن هتلر إلى سيطرته على الجبهة الداخلية، وأحس بتخاذل إنجلترا وفرنسا تجاه أطماعه التوسعية، قرر القضاءَ على معاهدة فرساي تمامًا بشكل نهائي، فأصدر أوامره للجيش الألماني، في الساعة الخامسة من صباح 1 سبتمبر 1939، لاجتياح بولندا.

ولكن خابت توقعات هتلر هذه المرة، فسرعان ما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، وبعدها بساعات قليلة أعلنت فرنسا الحرب أيضا، ليظهر شبح الحرب العالمية الجديدة في الأُفق مستعدًا لحصد الأرواح بشراهة، ولم تنته الحرب إلا وقد حصدت بالفعل ما يزيد على 50 مليون نسمة إلى جانب الخسائر المادية الهائلة.

وامتد حصار واضطهاد الألمان لليهود ليشمل باقي أنحاء أوروبا، التي سقطت في قبضة النازية، فعلى سبيل المثال قام الألمان ببناء حي خاص لليهود في وارسو عاصمة بولندا المحتلة عام 1940، وكان الحي مصممًا كسجن عملاق لليهود، حيث كان ارتفاع أسواره ثلاثة أمتار، ليضم بداخله نحو نصف مليون يهودي من أعمار وفئات مختلفة، يعانون من الجوع والبرد ونقص الرعاية الصحية، وكانت سياسة الألمان تقتضي أن يعمل السجناء الأصحاء، بمن فيهم اليهود، في مشاريع الجيش المختلفة، كالبناء ورصف الطرق بالسُّخرة، وكان للسجناء زي موحد ذو خطوط طولية مميزة.

ومع تصاعد العنف الألماني تجاه اليهود والغرب الأُوروبي، كانت فلسطين ملجأ مناسبًا للعديد من الهاربين من بطش النازية، ومنفذًا مؤقتًا أمام اليهود للهروب من المذابح المستمرة التي ترتكب بحقهم في معسكرات الاعتقال.

لكن ذلك الحلم سرعان ما تحول لكابوس مفزع عندما أحس اليهود الفارين لفلسطين بالخطر مرة أخرى مع وصول القوات الألمانية - الفيلق الصحراوي - لطرابلس بقيادة الجنرال روميل في 12 فبراير 1941، وبات الأمر وشيكًا على احتلال مصر ومن بعدها اجتياح فلسطين والشام، وهو ما كان أمرًا حيويًّا للقوات الألمانية التي تهدف للاستيلاء على قناة السويس، وحرمان بريطانيا من مستعمراتها في الشرق، وقطع خطوط إمدادها، وكذلك الاستيلاء على حقول النفط الرئيسية في المنطقة والسيطرة عليها، ويمكننا أن نتصور الرعب الذي سرى في نفوس اليهود الذين هربوا من أوروبا، وهم يسمعون أخبار القوات الألمانية وهي تحقق انتصارات متتالية وتتقدم في شمال إفريقيا، مقتربةً من التجمع الأكبر لهم في الشرق، وعلى رأس تلك القوات الجنرال الأُسطوري روميل، المؤمنُ بشكل كامل بمبادئ النازية، وصاحب السجل الحافل بالانتصارات العسكرية الباهرة.

ومع اقتراب القوات الألمانية وإحساس الحلفاء بالعجز، بدأت بريطانيا بقيادة رئيس وزرائها ونستون تشرشل، في اتباع سياسة جديدة تجاه اليهود، حيث عملت على تسليح فرق "الهاغانا" كظهير مدني للجيش البريطاني، وخط دفاع أخير في الشرق الأوسط لتأمين قناة السويس، وحقول النفط في العراق وإيران، وعملت على تدريبهم على حرب الشوارع، وقتال المدن، ولعب القائد اليهودي موشى ديان دورًا كبيرًا في تدريب مئات الشباب

والفتيات اليهود على فنون حرب العصابات، واستغلال الموارد المتاحة لإنتاج الأسلحة الفعالة.

وكان الموقف العربي مختلفًا إزاء هتلر والنازيين، فقد وجدوا فيه عدوًا لبريطانيا ولليهود، وسرت شائعات غامضة باعتناق هتلر الإسلام، وكذلك روميل، ولكن اقتصر الدعم العربي في جوهره على التعاطف، ولم يَرقَ دعمُ العرب للنازيين ليتخذ شكلا مؤثرا في سير المعركة.

وفي 23 أكتوبر 1942 وصل روميل أخيرا إلى الصحراء المصرية، وتحديدًا مدينة العلمين، ليواجه الجنرال البريطاني برنارد مونتجمري، في معركة حاسمة وفاصلة حول مستقبل الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، المعركة التي استمرت لاثني عشر يومًا كاملة، خاضها الجيش البريطاني مزودًا بأعداد كثيفة من الجنود الذين كانوا خليطًا من جنسيات مختلفة "بريطانيين، أستراليين، نمساويين، جنوب إفريقيين، فرنسيين"، ومسلحًا بدبابات أمريكية حديثة الطراز، ما ضمن له التفوق الميداني، فكانت معركة العلمين أول انتصار حقيقي لدول التحالف في الحرب العالمية الثانية، وبداية التحول في مسارها.

وبانتشار أخبار الانتصار البريطاني ارتفعت معنويات الحلفاء في كل ميادين القتال المتفرقة، وتوالت الخسائر الألمانية، ففي جبهة القتال الشرقية شنت القوات الروسية هجومًا عنيفًا ضد الجيش الألماني الذي يحاصر مدينة ستالنجراد، وانتهى الهجوم بهزيمة الجيش السادس الألماني في 2 فبراير 1943، ثم تبعت تلك الهزيمة هزيمة أخرى على الجبهة الروسية، أدت لتحطيم النسبة الأكبر من سلاح الدبابات الألمانية أمام الدبابات الروسية، في أكبر معركة دبابات شهدها التاريخ، ما أجبر الألمان على الانسحاب الكامل من القوقاز وخسارة تلك الجبهة.

ثم كان الإنزال الكبير لقوات التحالف على شاطئ نورماندي وتحريرهم لفرنسا وعدد من المدن الأوروبية الأخرى، واستمرت الخسائر الألمانية حتى وجد الألمان القوات الروسية تجتاح ألمانيا من الشرق، والقوات الأمريكية تجتاحها من الغرب، لتسقط برلين في أبريل 1945، وينتحر هتلر وقادة الحزب النازي، مصطحبين معهم أطفالهم وحيواناتهم الأليفة.

وتبدأ الآلة الإعلامية الأمريكية في مصاحبة الجيش المنتصر في التجول داخل ألمانيا ما بعد الحرب، لتصور الكاميرات التليفزيونية معسكرات الاعتقال النازية، وتكشف العديد من المقابر الجماعية، وأفران الحرق، وتَبُثُّها إلى العالم مع التركيز على المعتقلين اليهود بشكل خاص، على حساب كل الضحايا الآخرين.

وأصبح اليهود أكثر تصميمًا بعد الحرب على بناء وطن خاص بهم، وأصبح العالم أكثر تعاطفًا وترحيبًا بالفكرة، وتوالت الهجرات بشكل مكثف لفلسطين، حتى إن الرئيس الأمريكي ترومان أراد أن يُرحل مئة ألف من الناجين من معسكرات التعذيب النازية التي سميت لاحقًا "الهولوكست"، وهي كلمة يونانية تعنى إحراق الأضحية بالكامل.

إشارة لما اعتبره اليهود إبادة جماعية ارتكبها الألمان في حقهم، ولكن السياسة البريطانية وقفت كحجر عثرة في وجه تلك المطالب بسبب أهمية فلسطين الإستراتيجية، واستمرت سياسة إغلاق البوابات والمعابر والتضييق على المهاجرين.

وصرح المسؤول البريطاني إرنست يافين رافضا طلبات ترومان:

" لقد انتظر اليهود 2000 سنة للحصول على وطن، أم لن يضيرهم كثيرا لو انتظروا وقتًا أطول "

وذلك في محاولة من بريطانيا لدفع اليهود إلى الحصول على وطن بديل في أواسط أوروبا أو إفريقيا، ولكن الهجرات استمرت بشتى السبل، واعتمد اليهود الطرق غير الاعتيادية مثل التهريب، واستخدام السفن ذات المخابئ السرية.

وفي محاولة جديدة للسيطرة على هذه الهجرات، قامت السفن الحربية الإنجليزية بعمل نقاط تفتيش في البحر المتوسط، وكان من يُقبض علية محاولاً التسلل إلى فلسطين يتم وضعُهُ في الحجز بحيفا بشكل مؤقت حتى يتم ترحيلة إلى قبرص، وأصبح الوضع أشبه بروايات الكوميديا السوداء، فمن ناحية كان الجنود والضباط الإنجليز يرغبون في العودة لأوطانهم بعد حرب دامية دمرت معنوياتهم وإذاقتهم طعم الموت وهم على قيد الحياة، ومن ناحية أخرى فقد تدرب اليهود جيدًا على حرب العصابات، وتسلحوا بشكل غير مسبوق على يد الجيش البريطاني الذي يحاول منعهم من التحكم في القدس وفلسطين، تنفيذًا لوعد بلفور، ذلك الوعد الذي كان أيضا بريطاني الهويةِ.

وبدأت الجماعات اليهودية المسلحة في القيام بعمليات تخريبية ضد الجيش الإنجليزي، كإعلان للمقاومة المسلحة، وشملت تلك العمليات خطوط الاتصالات، ومخازن الأسلحة وأنابيب الوقود وخطوط الغاز، وبدأ تكثيف نشاط الجماعات المسلحة في أوقات وصول سفن اللاجئين كنوع من التمويه والتشتيت، واستمرت الأمور في التصاعد بشكل دموي حتى صدرت أوامر إنجليزية بحظر وتجريم حمل السلاح، وباعتقالِ كلِّ القادة الصهاينة البارزين، وقتل كلِّ مقاوم ومخالف، فكان الردُّ على تلكَ الإجراءات البريطانية بتفجير فندقِ الملك "ديفيد" المقر الرئيسي لتجميع ضباط الجيش الإنجليزي، لتسقط

أعدادٌ ضخمة من الضحايا من جنسيات مختلفة، شاملة العرب واليهود، وأعلنت الإذاعة البريطانية أن أفراد بعض العصابات الإرهابية اليهودية قد تنكروا في أزياء عربية، وزرعوا القنابل في بهو الفندق، وكانت تَقصِدُ بذلك جماعة الأرجون التي كان يقودها مناحم بيجن، الذي أصبح لاحقًا رئيس وزراء إسرائيل، ورئيس الوفد الإسرائيلي في مفاوضات السلام مع مصر.

وتمت ملاحقة أعضاء تلك الجماعة، والقبض على عدد كبير منهم، وإعدام البعض الآخر، وأصبحت بريطانيا، الدولة الجريحة بعد حربين عالميتين، في حَيرةٍ من أمرها، وأصبحت تكلفة الحفاظ على فلسطين أكثر ممن ينبغي، فأعلنت بريطانيا من قِبَلِ مندوبها في الأمم المتحدة عن أنها عاجزة في ظل الأوضاع الراهنة على حفظ السلام في فلسطين بين العرب واليهود، وستترك حلَّ المسالة في أيدي الأمم المتحدة، وهو ما يعني رغبة بريطانيا في الانسحاب من فلسطين تحت ستار دولي، واقترح المبعوث الروسي "أندرو جرميه" تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وتم تشكيل لجنة من قبل الأمم المتحدة وإرسالها للقدس لتقصي الحقائق على أرض الواقع، وبدأ اليهود في التواصل مع تلك اللجنة لإقناعهم بأحقيتهم في المطالبة بأرض فلسطين، خصوصا أن مدنهم ومزارعهم ومدارسهم هي الأقرب للمدنية على الطراز الأوروبي، بينما المدن العربية بدائية وبسيطة، كما عرضوا على اللجنة أوضاع المقبوضِ عليهم في محاولات التسلل لفلسطين وأماكن احتجازهم، تمهيدًا لترحيلهمِ إلى قبرص، وأصبحت اللجنة أكثر اقتناعًا بأهمية انسحاب بريطانيا من المشهد، وبحل الدولتين، وأعلنت بريطانيا في مجلس الأمن أنها قررت استكمال الانسحاب في فلسطين في أغسطس 1948، وأحس الجميع أن الوقت قد حان لاتخاذِ قرار بخصوص تلك المسألة، وبخاصة أن الصهيونية العالمية لوحت بأن اليهود سيصبح وضعهم أسوأ من ذي قبل، ولم يعد لهم مكان يذهبون إليه إن تملكهم اليأس، وبات واضحًا أنهم في الطريق لحلٍّ أكثر دمويةً في المستقبل مع وجود فرق "الهاغانا" و"الأراجون" وغيرها من المليشيات المسلحة عالية التدريب.

وبدأت المناقشات في قاعات الأمم المتحدة بحضور مبعوثي الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا وسوريا والمملكة العربية السعودية والعراق، وغيرها من الدول، وبدأ رجال الأعمال من اليهود والموالين للصهيونية في الضغط على الدول التي لها حقُّ التصويت في الأمم المتحدة، وبرز منهم "فيرستون" تاجر المطاط الأمريكي، وصاحب شركة الإطارات الشهيرة firestone.

ورغم محاولات العرب للتصويت ضد قرار التقسيم وعرقلته، فقد صدر القرار 188 بتاريخ 29 نوفمبر 1947 الخاص بتقسيم فلسطين بموافقة 33 دولة،

ورفض 13 دولة فقط مع وجود 10 دول ممتنعة عن التصويت.

وجاءت صيغة القرار كالتالي:

"إن الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة، بعد أن عقدت دورة خاصة بناء على طلب الدولة المنتدبة – بريطانيا - للبحث في تشكيل وتحديد صلاحية لجنة خاصة يعهد إليها تحضير اقتراح للنظر في مسالة حكومة فلسطين المستقلة في دورتها الثانية.

وبعد أن شكلت لجنة خاصة أناطت بها مهمة إجراء تحقيق حول جميع المسائل المتعلقة بمشكلة فلسطين وتحضير مقترحات بغية حل هذه المشكلة.

وبعد أن تلقت وبحثت تقرير اللجنة الخاصة "مستند رقم 364/أ" الذي يتضمن توصيات عدة قدمتها اللجنة بعد الموافقة عليها بالإجماع، ومشروع تقسيم اتحاد اقتصادي وافقت عليه أغلبية اللجنة، تعتبر أن الحالة الحاضرة في فلسطين من شأنها إيقاع الضرر بالمصلحة العامة والعلاقات الودية بين الأمم.

وتحيط علمًا بتصريح الدولة المنتدبة الذي أعلنت بموجبه أنها تنوي الجلاء عن فلسطين في أول آب (أغسطس) سنة 1948.

وتوصي المملكة المتحدة، بصفتها الدولة المنتدبة على فلسطين، وجميع أعضاء الأمم المتحدة، بالموافقة وبتنفيذ مشروع التقسيم مع الاتحاد الاقتصادي لحكومة فلسطين على الصورة المبينة أدناه، وتطلب:

أ- أن يتخذ مجلس الأمن التدابير الضرورية المنوه عنها في المشروع لتنفيذه.

ب- أن يقرر مجلس الأمن، إذا أوجبت الظروف ذلك في أثناء المرحلة الانتقالية، ما إذا كانت الحالة في فلسطين تشكل تهديدا للسلم. فإن قرر مجلس الأمن أن مثل هذا التهديد قائم بالفعل فيجب عليه المحافظة على السلم والأمن الدوليين أن ينفذ تفويض الجمعية العامة، وذلك باتخاذ التدابير وفقا للمادتين 39 و41 من الميثاق، لتخويل لجنة الأمم المتحدة سلطة في أن تمارس في فلسطين الأعمال التي يلقيها هذا القرار على عاتقها.

ج- أن يعتبر مجلس الأمن كل محاولة ترمي إلي تغيير التسوية التي يهدف إليها هذا القرار بالقوة تهديدا للسلم، أو قطعا أو خرقا له، أو عملا عدوانيا بموجب نص المادة 39 من الميثاق.

د- أن يبلغ مجلس الوصاية بالمسؤولية المترتبة عليه بموجب هذا المشروع.

وتدعو الجمعية العامة سكان فلسطين إلى اتخاذ جميع التدابير التي قد تكون ضرورية من ناحيتهم، لوضع هذا المشروع موضع التنفيذ، وتناشد جميع

الحكومات والشعوب الامتناع عن كل عمل قد يعرقل أو يؤخر تنفيذ هذه التوصيات.

وفي اجتماعها الثامن والعشرين بعد المئة بتاريخ 29 نوفمبر سنة 1947 انتخبت الجمعية العامة وفق أحكام القرار المذكور أعلاه الأعضاء الآتية أسماؤهم.

التصويت على القرار:

وافقت على القرار 33 دولة هي الآتية: أستراليا وبلجيكا وبوليفيا وبيلوروسيا وكندا وكوستاريكا وتشيكوسلوفاكيا والدانمارك وجمهورية الدومينيكان وإيكوادور وفرنسا وغواتيمالا وهاييتي وآيسلندا وليبيريا ولوكسمبرغ وهولندا ونيوزليندا ونيكاراغوا والنرويج وبنما وباراغواي وبيرو والفلبين وبولندا والسويد وأوكرانيا وجنوب إفريقيا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية وأوروغواي وفنزويلا.

وصوت ضد القرار 13 دولة هي:

أفغانستان وكوبا ومصر واليونان والهند وإيران والعراق ولبنان وباكستان والمملكة العربية السعودية وسورية وتركيا واليمن.

وامتنعت عن التصويت 10 دول هي:

الأرجنتين وتشيلي والصين وكولومبيا وسلفادور والحبشة وهندوراس والمكسيك والمملكة المتحدة ويوغوسلافيا".

ولم يكن أمام اليهود إلا أشهر قليلةٌ وتنسحب القوات البريطانية، ويمكنهم بناء دولتهم، فاندفعوا في شوارع تل أبيب للرقص، والاحتفال، ولكنهم لم يتوقفوا لحظةً واحدةً عن الإعداد لما هو قادم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الاستقرار تحت ظلال المدافع

بدأ الصراع في منطقة فلسطين والقدس قبل ظهور الإسلام، وقبل ظهور المسيحية، وقبل اكتمال وتَشَكُّلِ الديانةِ اليهودية بالشكل الذي نعرفه اليوم، كان صراعًا إنسانيًّا صافيًا ككل أشكال الصراعات التي عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ، صراعًا من أجل البقاء، والاستمرار، صراعًا من أجل الحياة والوجود بين طرفين يبدو وجودهم كلاسيكيًّا في كل الملاحم والمعارك القديمة، فالطرف الأول: قبائلُ مستقرةٌ تنعم بالخير والرخاء، وتعيش آمنةً مطمئنةً في ظل توافر الماء والغذاء والتربة الخصبة، وتنشغل ببناء حضارتها. والطرف الثاني: قبائلُ من البدو الرُّحَّل التي تعاني من قلة الموارد، وعدم الاستقرار، وتطمع أن تجد لها مكانًا في أرضٍ خضراءَ ترحمها من جفاف الصحراء وشقاء الترحال.

كان صراعًا سابقًا لتشريعات السماء، وعقائد الرسل وخطابات الدعاة، والقادة والسياسيين، صراعًا واضحًا بسيطًا محددًا، ولكنه دموي وعنيف إلى أقصى درجة. لا يمكن أن ننكر أن الصراع تطور مع الوقت، وتغيرت صُورُهُ وأشكالُه ليصبح ذا طابع ديني وعقائدي وسياسي وقومي، وأصبحت لكل شيءٍ في تلك المنطقة هُويتان مختلفتان واسمان مختلفان، وتمزقت الشخصية التي لم تلتئم، ولم تستقم على وتيرة واحدة على مر التاريخ.

فالمدن العربية صار لها أسماء عبرية، والشوارع العربية صار لها أسماء عبرية، والتقاليد العربية صارت تزاحمها التقاليد العبرية، وكذلك الأعياد والمناسبات والمواسم الدينية، كلُّ شيءٍ تغير تدريجيًّا حتى صار الأصلُ بعيدًا باهتا غيرَ واضح المعالم.

بدأ كُلُّ شيءٍ في 14 مايو 1948 عندما وقف بن جوريون في تل أبيب معلنًا قيام دولة إسرائيل، وسط جمع من قادة التنظيمات والأحزاب اليهودية قائلاً:

"نشأ الشعب اليهودي في أرض إسرائيل، وفيها تمت صياغة شخصيته الروحانية والدينية والسياسية، وفيها عاش حياة مستقلة في دولة ذات سيادة، وفيها أنتج ثرواته الثقافية الوطنية والإنسانية العامة، وأورث العالم أجمع سفر الأسفار الخالد.

وعندما أُجلِيَ الشعب اليهودي عن بلاده بالقوة، حافظ على عهده لها وهو في بلدان شتاته كلها، ولم ينقطع عن الصلاة والتعلق بأمل العودة إلى بلاده، واستئناف حريته السياسية فيها.

وبدافع هذه الصلة التاريخية والتقليدية، نزع اليهود في كل عصر إلى العودة إلى وطنهم القديم والاستيطان فيه. وفي العصور الأخيرة أخذ آلاف مؤلفة

منهم يعودون إلى بلادهم، من طلائع ولاجئين ومدافعين، فأحيوا القفار وبعثوا لغتهم العبرية وشيدوا القرى والمدن، وأقاموا مجتمعًا آخذًا بالنمو ذا سيادة اقتصاديًا وثقافيًا، ينشد السلام ويدافع عن نفسه ويزف بركة التقدم إلى جميع سكان البلاد، متطلعًا إلى الاستقلال الرسمي.

وفي عام 5657 حسب التقويم العبري للخليقة، الموافق عام 1897 ميلاديًا، عُقد المؤتمر الصهيوني تلبية لنداء صاحب فكرة الدولة اليهودية ثيودور هرتزل، وأعلن عن حق اليهود في النهضة الوطنية في وطنهم.

وتم الاعتراف بهذا الحق في وعد بلفور في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1917 وتم إقرار هذا الحق في صك الانتداب الصادر عن عصبة الأمم، والذي اعترف دوليًا بالصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بأرض إسرائيل، وبحق الشعب اليهودي في إعادة تشييد وطنه القومي.

إن المحرقة التي حلت بالشعب اليهودي في الآونة الأخيرة، والتي ذُبح فيها الملايين من يهود أوروبا، قد عادت وأثبتت بالفعل ضرورة حل مشكلة الشعب اليهودي المحروم الوطن والاستقلال، من خلال استئناف قيام الدولة اليهودية في أرض إسرائيل، لتفتح باب الوطن على مصراعيه من أجل كل يهودي، وتؤمن للشعب اليهودي مكانة أمة متساوية الحقوق ضمن أسرة الشعوب.

إن البقية الباقية التي نجت من المجزرة النازية الفظيعة في أوروبا، مع يهود من بلدان أخرى، لم يكفوا عن القدوم إلى أرض إسرائيل، رغم جميع الصعوبات والعراقيل والأخطار، ولم ينقطعوا عن المطالبة بحقهم في حياة من الكرامة والحرية والعمل الشريف في وطنهم.

وفي الحرب العالمية الثانية ساهم المجتمع اليهودي، في أرض إسرائيل، بنصيبه الكامل في نضال الأمم نصيرة الحرية والسلام، ضد قوى الظلم النازية، وقد اكتسب اليهود بدماء جنودهم وبمجهودهم الحربي حق اعتبارهم شعبًا من الشعوب التي وضعت الأسس لميثاق الأمم المتحدة.

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1947 اتخذت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة قرارًا ينص على إقامة دولة يهودية في أرض إسرائيل، وطالبت الجمعية العمومية للأمم المتحدة أهالي أرض إسرائيل، باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة من جانبهم لتنفيذ هذا القرار.

إن اعتراف الأمم المتحدة بحق الشعب اليهودي في إقامة دولته غير قابل للإلغاء.

إنه لمن الحق الطبيعي للشعب اليهودي في أن يكون أمة مستقلة في دولتها ذات السيادة، مثل سائر شعوب العالم.

وعليه فقد اجتمعنا، نحن أعضاء مجلس الشعب ممثلي المجتمع اليهودي في البلاد والحركة الصهيونية، في يوم انتهاء الانتداب البريطاني على أرض إسرائيل، وبحكم حقنا الطبيعي والتاريخي، بموجب قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة، نعلن عن إقامة دولة يهودية في أرض إسرائيل وهي "دولة إسرائيل".

إننا نقرر أنه ابتداء من اللحظة التي ينتهي فيها الانتداب الليلة، ليلة 6 أيار (مايو) عام 5708 عبرية، الموافق 15 أيار (مايو) عام 1948 ميلاديًا، وحتى إنشاء سلطات الدولة المنتخبة والنظامية، طبقًا للدستور الذي يضعه المجلس التأسيسي المنتخب، في موعد لا يتأخر عن مطلع شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام 1948، يقوم مجلس الشعب بمهام مجلس الدولة المؤقت وسلطته التنفيذية، أي أن الإدارة الشعبية تكون الحكومة المؤقتة للدولة اليهودية التي تسمى إسرائيل.

ستكون دولة إسرائيل مفتوحة الأبواب للهجرة اليهودية وللم الشتات، وتدأب على تطوير البلاد لصالح سكانها جميعًا وتكون مستندة إلى دعائم الحرية والعدل والسلام، مستهدية بنبوءات أنبياء إسرائيل، وتحافظ على المساواة التامة في الحقوق، اجتماعيًا وسياسيًا، بين جميع رعاياها دون التمييز من ناحية الدين والعرق والجنس، وتؤمن حرية العبادة والضمير واللغة والتربية والتعليم والثقافة، وتحافظ على الأماكن المقدسة لكل الديانات، وتكون مخلصة لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

إن دولة إسرائيل مستعدة للتعاون مع مؤسسات وممثلي الأمم المتحدة، على تنفيذ قرار الجمعية العمومية الصادر بتاريخ 29 تشرين الثاني (أكتوبر) عام 1947، وللعمل على إنشاء وحدة اقتصادية تشمل أرض إسرائيل برمتها.

إننا نناشد الأمم المتحدة أن تمدّ للشعب اليهودي يد المساعدة على تشييد دولته، وقبول دولة إسرائيل ضمن أسرة الأمم.

إننا ندعو أبناء الشعب العربي سكان دولة إسرائيل – حتى في أثناء الحملات الدموية التي تُشن علينا منذ شهور – إلى المحافظة على السلام، والمشاركة ببناء الدولة على أساس المساواة التامة في المواطنة، والتمثيل المناسب في جميع مؤسساتها المؤقتة والدائمة.

إننا نمدّ يد السلام وحسن الجوار إلى جميع الدول المجاورة وشعوبها، وندعوها إلى التعاون مع الشعب اليهودي المستقل في بلاده. إن دولة إسرائيل مستعدة للمساهمة بالمجهود المشترك لرقي الشرق الأوسط بأسره.

إننا ندعو الشعب اليهودي في جميع دول الشتات، إلى التكاتف والالتفاف حول المجتمع اليهودي في هذه البلاد، من أجل الهجرة إلى البلاد والبناء، والوقوف إلى جانبه في كفاحه العظيم لتحقيق أمنية الأجيال، وهي خلاص الشعب اليهودي.

وتوكلاً على إله إسرائيل سبحانه وتعالى، نثبت بتوقيعنا هذا الإعلان في اجتماع مجلس الدولة المؤقت في أرض الوطن، في مدينة تل أبيب اليوم، يوم الجمعة الخامس من شهر أيار (مايو) عام 5708 عبرية، الموافق الرابع عشر من شهر أيار (مايو) عام 1948م."

وقد وَقَّعَ على تلك الوثيقة كُلٌّ من:

ديفيد بن جوريون - دانيال أومستر - مردخاي بنتوف - إسحق بن زفي - إلياهو برلن - برتز برنشتين - حاخام ذيف - غولد مائير - غرايوفسكي غوينباوم - إبراهام غرانوفسكي - إليوهو دوبكن - مائير فلز- زوراه واراهافيغ - هرزل شاري - راشيل كوهين - كالمان كاهان - س كوثاش - إسحق مائير ليفن- م. د. ليفنشتاين - زفي لوريا - غولدا مايرسن - ناحوم نير - راف لكس - زفي سيغال ـ يهودا ليب- كوهين فشمان - ديفد نلسون - زفي بنحاس - أهرون زيلخ -موشي كولورني - أ. كابلان - أ. كاتز - فيلكس روزنبلت - د. ديمبر - ب. ريبتور - موردخاي شامير بن زيون سنتيرنبرغ - بيخور شطربت - موشي شابيرا - موشي شرتوك".

ليصبح هذا الخطابُ منذ هذا التاريخ بدايةَ ما سماه اليهود "حرب التحرير"، بدعوى أنهم قد استعادوا أرضهم من محتل قد استولى عليها منذ مئات السنين، وما سماه العرب "النكبة الكبرى" بدعوى أنهم خسروا قطعة من أرضهم وتاريخهم وهويتهم، وحطمت على أثر هذا جيوشُهم.

والحقيقة أنه يمكن اعتبارُ تلك الوثيقة بمثابة بانوراما شاملة، تُعَبِّرُ عن رؤية اليهود ونظرتهم التاريخية، التي تناقلوها جيلاً بعد جيلٍ، لمدينة القدس ودولة فلسطين، مُستخدمةً العديد من المصطلحات الدلالية الهامة كإله إسرائيل، الشتات، الحق الطبيعي، السلام، المشاركة في بناء الدولة، الحفاظ على الأماكن المقدسة، الكفاح العظيم، المشاركة في البناء، خلاص الشعب اليهودي، وذلك في صياغة محكمة تعبر عن الماضي وترسم رؤية للغد، وتدعو الجميع إلى الهجرة للأرض الجديدة، راسمةً خريطةً للمستقبل بالدمع والعرق والدماء.

وفي نفس الوقت تجنب الخطابُ بشكل لا يمكن تجاوزه، بعضَ المصطلحات الدلالية الهامة الأخرى كـ"العرب، المسلمين، السكان الحاليين، الدولة الفلسطينية، الحقوق التاريخية والدينية للشعوب الأخرى".

ليبدو أن فتيل الأزمة سيشتعل في المنطقة مرة أخرى، داخلاً منعطفًا جديدًا يسمى "الصراع العربي الإسرائيلي" على أساس أن إسرائيل أصبحت دولة ذات كيان وسيادة وموقع على الخريطة، وليست عدوًّا غامضًا، أو كيانًا وهميًّا، وتنظيمات سرية تعمل في الخفاء، وهو الصراع الذي بدأ عندما تحركت جيوش 6 دول عربية من وجهات مختلفة تجاه فلسطين، هي مصر والسعودية والأردن والعراق وسوريا ولبنان، على أمل إبطال قرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة بقوة السلاح، لكن هذا لم يحدث، فرغم أن الجانب الآخر كان يتكون من جيش غير نظامي، قوامه ميليشيات الهاغانا والأرجون وغيرها، فإنهم كانوا أكثر عددًا وأعلى تدريبًا ومعرفةً بالأرض التي جرى عليها القتال، وكانوا قد استعدوا جيدًا وحولوا كلَّ ما لديهم من موارد وآلات لأسلحة فتاكة، فحتى الجرارات الزراعية أصبحت عربات مدرعة، وكانت سفن اليهود القادمة من أوروبا تضخ عشرات الرجال الذين ما إن تطأ أقدامهم أرض الميعاد حتى يتسلموا السلاح ويتوجهوا للمعركة، في مشهد يُشابه ما حدث إبان الحرب الأهلية الأمريكية، التي كانت فيها الولايات الشمالية تعتمد على المهاجرين لميناء نيويورك، وتسلمهم الزي العسكري والسلاح ووجبة ساخنة، قبل أن تلقيهم في نيران المعركة الموعودة.

وانكسرت الجيوش العربية بأسلحة فرنسية وإنجليزية يحملها اليهود، والغريب في الأمر أنهم كانوا هم أيضا يحملون أسلحة مشابهة المصدر والأنواع، كأنها إشارة رمزية للدور المحوري الذي لعبته إنجلترا وفرنسا في خلق ذلك الصراع وتأجيجه.

وبعد مراحلَ عديدةٍ من التطور الميداني، والخسائر المتتالية، قَبِلَ العربُ الهدنةَ في 19 يوليو 1949، تلك الهدنةُ التي اعتبِرَت من جانب الكثيرين اعترافًا ضمنيًّا بالكيان الإسرائيلي، وأيضا اعترافًا بالهزيمة.

والآن وبعد مرور قرن من الزمان على وعد بلفور، وبعد مرور أكثر من نصف قرن على إعلان قيام دولة إسرائيل، بات واضحا أن الطرق التقليدية القديمة لن تحسم ذلك الصراع، وأن القادم لن يكون في صالح العرب، ولن يكون في صالح إسرائيل، إلا بإدارة الموقف بطريقة مختلفة، تعلي من شأن الإنسان وتبعث الأمل في المنطقة، وأن تدرك اسرائيل أن حقوق الفلسطينيين التاريخية واقع حقيقي وليس ذنب الفلسطينيين أن العالم ظل لقرون طويلة يضطهد اليهود ليقوم اليهود بعد أن هيأت لهم الظروف التاريخية قيام دولتهم بممارسة الاضطهاد نفسه للفلسطينيين.

لابد من حلول انسانية بعيدة عن التعصب مهما كان مصدره، الدين أو التراث الأدبي، حتى تنعم المنطقة بالأمن والسلام الذي لم تنعم به منذ فجر التاريخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



قائمة المصادر والمراجع

• موسوعة قصة الحضارة، ويل ديورانت، المجلد الأول والثاني، ترجمة زكي نجيب محمود، ومحمد بدران، مكتبة الأسرة، مصر.

• دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، الكتاب الثالث والرابع، محمد بيومي مهران، مصر.

• موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيري جديد، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر.

• تاريخ إسرائيل من واقع نصوص التوراة والأسفار وكتب ما بين العهدين، الأب متّى المسكين، دير القديس أنبا مقار.

• اليهود، أنثروبولوجيا جمال حمدان، دار الهلال.

• الكتاب المقدس "العهد القديم، العهد الجديد" الطبعة العربية، دار الكتاب المقدس.

• القدس مدينة الله أم مدينة داوود، حسن ظاظا، كلية الآداب جامعة الإسكندرية.

• الدولة اليهودية، ثيودور هرتزل، ترجمة وتحقيق مؤسسة الأبحاث العلمية.

• القدس عبر التاريخ، ميخائيل مكسي إسكندر، المعهد العالي للدراسات القبطية.

• المفصل في تاريخ القدس، عارف العارف، مطبعة المعارف، القدس.

• يسوع في التلمود - المسيحية المبكرة في التفكير اليهودي الحاخامي، بيتر شيفر، ترجمة نبيل فياض، المركز الأكاديمي للأبحاث.

• الشخصية الصهيونية في الرواية الإنجليزية، هاني الراهب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

• نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط، ديفيد فرومكين، ترجمة وسيم عبدو، دار عدنان، بغداد.

• الماسونية في العالم العربي، وائل إبراهيم الدسوقي، المكتبة الأنجلو أمريكية.

• دور يهود الولايات المتحدة الأمريكية في دعم الحركة الصهيونية، عبد الوهاب شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

• ولادة إله التوراة، المؤرخ جان بوتيرو، ترجمة جهاد الهواش، وعبد الهادي عباس، دار الكلمة.

• وعد بلفور- أصول الصراع العربي الإسرائيلي، جوناثان شنير، دار بلومزبري.

• التجربة والخطأ - مذكرات حاييم وايزمان، هماميش هاميلتون، لندن.

• يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ترجمة ناصر الأسد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

• الحرب العالمية الأولى - مشاهدات علمية، سايمون آدامز، نهضة مصر.

• الحرب العاملية الثانية - مشاهدات علمية، سايمون آدامز، نهضة مصر.

• الحرب العالمية الأولى، نيل م هايمان، ترجمة حسن عويضة، مشروع كلمة، أبو ظبي.

• لورانس في أرض العرب وتأسيس الشرق الأوسط الحديث، سكوت أندرسون، مؤسسة دبلداي للطباعة والنشر، نيويورك.

• مذكرات ووثائق ومراسلات واتفاقيات، موقع فلسطين بالعربي دوت كوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

لينك الانضمام الى الجروب – Group Link

لينك القنــــاة – Link

الفهرس..